سلسلة الأدب

أين تذهب طيور المحيط

من الإسكندرية إلى موسكو



إبراهيم عبد المجيد

الهيئة المصرية العامة للكتاب

أين تذهب طيور المحيط

مِن الإسكندرية إلى موسكو

إبراهيم عبد المجيد



ابن تذهب طيور المحيط من الإسكندرية إلى موسكو

لوحة الغلاف من أعمال الفنان : منير كنعان

المشرف العام :

د . ناصر الأنصارى

تصميم الغلاف :

د . مدحت متولى

التنفيذ :

الهيئة المصرية العامة للكتاب

عبد المجيد . إبراهيم .

ابن تذهب طيور المحيط من الإسكندرية إلى موسكو/ إبراهيم عبد المجيد . ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٩.

٢٢٤ ص : ٢٢سم

تدمك: ٩ - ٠٦٧ - ٤٢١ - ٩٧٧ - ٩٧٨.

١ ـ عبدالمجيد، إبراهيم - المذكرات .

٢ - الاتحاد السوفيتى - وصف رحلات.

أ - العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٨٩٤ / ٢٠٠٩

I.S.B.N 978-977-421-067-9

ديوى ٩٢٠

توطئة

انطلقت فعاليات الحملة القومية للقراءة للجميع فى دورتها التاسعة عشرة هذا العام تحت شعار «مصر السلام». هذا الشعار الذى ظلت السيدة الفاضلة سوزان مبارك تطرحه منذ بداية تنفيذ حلمها ليصير الكتاب زادًا متاحًا للجميع، وتصبح القراءة عادة لدى الأجيال الجديدة. لقد ظلت الدعوة للسلام تحلق فى فلك دورات المهرجان السابقة. فهى جزء من تاريخ مصر العريقة، التى بدأت الحضارة على أرضها، منذ وقّع رمسيس الثانى أول معاهدة سلام. لم يكن هناك حينئذ من يضاهيه تقدمًا أو قوة، ولكنه كان يُعلّم العالم أن من شيم الأقوياء التوق إلى السلام.

لقد جرت فى النهر مياه كثيرة منذ حازت السيدة الفاضلة سوزان مبارك جائزة التسامح الدولى لعام ١٩٨٨ من الأكاديمية الأوروبية للعلوم والفنون التى جاء فى تقريرها «إن الأكاديمية منحت الجائزة للسيدة سوزان مبارك عرفانًا بدورها الكبير فى إذكاء روح التسامح وطنيًا وإقليميًا وعالميًا، وتقديرًا لجهودها

الجادة»، وأصبحت القراءة للجميع من أهم المشروعات الثقافية العملاقة فى العالم العربى، وتم اتخاذه نموذجًا يحتذى به فى بلاد آخرى.

ومازالت مكتبة الأسرة، كرافد رئيسى من روافد القراءة للجميع، تقوم بدورها فى إعادة الروح إل الكتاب كمصدر مهم وخالد للمعرفة فى زمن تزحد فيه مصادر الميديا المختلفة. فالكتاب هو الجسر الراسخ الذى يربط ذاكرة الأمة وتاريخها وإنجازاته بأبنائها، وهو الفضاء الساحر الذى يلتقى به المثقفون والمفكرون والمبدعون بالأجيال المختلفة.

وتواصل مكتبة الأسرة هذا العام نشر أمهات الكتب، وستستكمل نشر تراث الأمة الإبداعى، وستعمل على ربط الكتاب بمصادر المعرفة الحديثة كالإنترنت، وعلى التوسع فى إصدار كتب الفنون المختلفة كالمسرح والموسيقى إيمانًا منها برسالة الفنون الرفيعة لتنمية وتطوير وتهذيب روح المجتمع، وحمايته من ضروب التعصب والكراهية والعنف الدخيلة عليه.

وتصدر مكتبة الأسرة هذا العام من خلال سلاسلها المختلفة.. الأدب والفكر العلوم الاجتماعية والعلوم والتكنولوجيا والفنون والمئويات والتراث وسلسلة الطفل، وستشكل هذه السلاسل بانوراما معرفية وتاريخية وعلمية وإبداعية وفكرية، وتمثل مرآة لاجتهادات الفلاسفة والشعراء والعلماء والمفكرين عبر قرون لتحقيق السلام للبشرية من خلال حلمهم الدائم بتحقيق الخير والعدل والجمال.

مكتبة الأسرة

٢٠٠٩

الرحلة الأولى

إلى موسكو بعد طول انتظار

انطباعات عن بلاد «البيريسترويكا»

اليوم كان السابع عشر من شباط (فبراير) عام ١٩٩٠، والرحلة سبقتها أيام من العناء.

أن تكون مرشحًا للسفر إلى الاتحاد السوفيتى من قبل وزارة الثقافة المصرية يعنى إجراءات طويلة، وظيفية مملة ومرهقة، لكننى كنت أجرى فى الشوارع وبين المكاتب.

روسيا . روسيا . الاتحاد السوفيتى. الاتحاد السوفيتى. هذه فرصة لا تُتاح للكُتَّاب فى مصر كثيرًا . خاصة لمن هم مثلى ليس لهم فى العلاقات العامة باع ولا ذراع ولا فى اتحاد الكتَّاب وضع أو عضوية فعّالة، ولا يعملون فى الصحافة، ولا يسلمون من حرب أنصاف الكتَّاب الذين اشتهروا خلسة إذ توفر لهم ما مضى كله.

روسيا. روسيا. من تولستوى إلى إيتماتوف مرورًا بالكوكبة الذهبية الروسية والسوفيتية، ومرورًا بعمرى، بقراءاتى الأولى لأدب الأمة الروسية ونماذج شعبها الطيب البائس، وقراءاتى الهادرة فى الماركسية وكيف خيبت روسيا ظن ماركس، فتقدمت هى لتحقيق أفكاره، هى الإقطاعية لا إنجلترا البرجوازية، وقدمت للدنيا مفكرًا من عندها أكثر قدرة وعقلاً، وتنظيمًا، وعملاً وإرادة هو فلاديمير إيلتش لينين وعربته الذهبية التى جرتها خيول من نوع تروتسكى وبوخارين وستالين قبل أن تدخل الخيول فى شجار عنيف مذكور فى الكتب المسموح بها والمحرمة، التى تضعها حكومات العالم الثالث فى فترينات المكتبات تعبيرًا عن حسن العلاقة مع القوة العظمى الثانية فى العالم، ثم تعتقل من يشتريها قبل وبعد القراءة!

الاتحاد السوفيتى. الاتحاد السوفيتى. اليوتوبيا التى تحققت للبشرية فى القرن العشرين بعد أن كانت حلم عصر التنوير، حلم المفكرين فى إنجلترا وفرنسا وألمانيا، والتى حين خرج العالم من الحرب العالمية الأولى بدأت أكبر عملية «حج» لمفكرى الغرب إلى هذه اليوتوبيا الجديدة. عملية «حج» لعشرات الكتّاب والمفكرين من العالم القديم والجديد ويلز مثلاً وشو وجيد وإدموند ويلسون وسوزان سونتاج.

لكنى ذاهب الآن فى حقبة البيريسترويكا، ذهب أقطاب من اليسار المصرى وعادوا يقولون لا خوف

على الماركسية اللينينية وأن وما يجرى مجرد تصحيح لتجربة أكبر دولة شيوعية، مجرد تغيرات لن تلغى الثوابت أبدًا...

وانا أريد أن أرى وأعرف، لكننى سأحاول أن أرى وأعرف من الناس العاديين فى الشوارع، وليس من المسئولين فى الحزب، أى حزب. وإن كنت بالطبع لن أقابل كل الناس (٢٩٠ مليونًا) ولن أجول بين كل القوميات (١٣٠ قومية) شرقية وغربية، تتحدث لغات مختلفة إلا فى المدن الروسية الكبرى حيث يكون للغة الروسية فاعلية كبيرة.

أجل. تبتعد عن المدن الكبرى، عن عواصم القوميات، فتدخل مدينة بابل القديمة التى أغضبت عليها الآلهة من كثرة الثرثرة والضجيج بكل اللغات فأرسلت عليها الطوفان الشهير..

ذاهب أنا فى حقبة البيريسترويكا التى تحتفل بها كل إذاعات الغرب المرئية والمسموعة والتى تلح علينا بالاضطرابات فى لاتفيا واستونيا وليتوانيا، جمهوريات البلطيق، بحر العنبر، وبالاضطرابات فى الجنوب، فى چورچيا التى أنجبت ستالين وتشق الآن عصا الطاعة بقوة، وفى أذربيجان التى تستند على إيران وطاجيستان بلد عبدالرحمن الجامى وداغستان بلد رسول حمزاتوف وغيرها وغيرها.

افكار متقاطعة

كان المفروض أن يستقبلنى فى المطار أحد. أى أحد. من اتحاد الكتّاب السوفيتى، لكن لم يستقبلنى أحد. وصلتهم برقية تعلن أن وصولى سيكون فى اليوم الثامن عشر، ومعى زميلى الشاعر محمد أبودومة. لكننا وصلنا فى اليوم السابع عشر، وعن طريق ڤيينا، لأن الطائرات المصرية لا تصل مباشرة إلى موسكو منذ ألغى السادات الرحلات المباشرة لشركة الطيران المصرية إلى هناك. وفى ڤيينا لم نر إلا فندق «نوفوتيل» الصغير الأنيق القريب من المطار، ولن نرى منها فى العودة إلا نفس الفندق ومحطة مترو قريبة «اسمع بنى ولا تنس ڤيينا عاصمة النمسا» جملة أتذكرها كثيرًا كان مدرس اللغة الإنجليزية زمان وأنا فى المرحلة الإعدادية يقطع الدرس دائمًا ويهتف بها أكثر من مرة ودون أن نعرف السبب، ولا نستطيع أن نضحك وتركنا المدرسة، ولم نعرف لماذا كان يفعل ذلك. لم نسأله أبدًا.

تذكرت هذه الجملة أكثر من مرة فى ڤيينا وأنا أشرب الشاى بثلاثين شلنًا (ثلاثة دولارات) وآكل طبق السلاطة بخمسين شلنًا وزميلى الشاعر محمد أبودومة يقول لى: لا تظن أن «ليالى الأنس فى ڤيينا كما قالت أسمهان. وأمام كل الڤاترينات التى رأيتها فى ڤيينا داهمنى شعور بائس بأننى الابن الفقير الخائف للعالم الثالث أو الرابع أو الخامس إذا شئت.

وازداد شوقى للذهاب إلى موسكو وفى العودة إلى القاهرة.

وعندما ركبت الطائرة الصغيرة من فيينا بدأ شلال من الأفكار المتقاطعة يهدر فى رأسى. موسكو التى كانت بداية النهاية لحلم نابليون، ولأطماع هتلر، والكرملين الجميل الذى بناه القياصرة وكاد نابليون يهدمه وملأه ستالين بالرعب. موسكو التى خرجت منها تحليلات المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى باعتبار الحكومات البرجوازية فى الدول المستقلة بعد الحرب الثانية حكومات وطنية، وما كان من هذه الحكومات الوطنية من طحن للشيوعيين لم يسبق له مثيل. وخروشوف الذى دشن أول صفحة فى نقد ستالين والذى دمر بيريا وزير داخلية ستالين الرهيب والذى جاء إلى مصر يفتح مشروع السد العالى، أو يزوره والشيوعيون المصريون فى جميع سجون مصر. موسكو التى ذكرها السادات بكل سوء وناضل الكتّاب الوطنيون نيابة عنها، عن أنفسهم ضد كامب ديفيد وضد الذهاب إلى الصلح مع العدو منفردًا دون موسكو، وبلا أهل من العرب. الآن انتهى كل ذلك. عاد العرب إلى مصر وعادت مصر إليهم شكرًا، وعاد السوفييت إلينا لكنهم أيضًا عادوا إلى العالم فى صورة أخرى. هل يمكن أن أرى هذه الصورة حقًا. وهل رأيتها؟

لقاء فلسطيني عابر. لقاء مصري

ثلاث ساعات في المطار، زحام خانق. حر شديد. أجل. بفعل التكييف القوي. ورثيت لزميلي الذي يرتدي البالطو. أنا دون بالطو. ولا أحب الهواء المكيف. ساخنًا أو باردًا. ولا أحد في انتظارنا ينقذنا من إجراءات الجمارك وطابور الدخول الطويل الذي أصابني بالضيق والتعب. خرجت من الطابور وتقدمت إلى الشرطي المنوط به التفتيش وإعطاء تأشيرة الوصول، تحدثت بالإنجليزية. نحن وفد من الكتاب المصريين والمفروض أن يكون في انتظارنا أحد (لم أكن أعرف أمر البرقية الخاطئة بعد) «ني جفريت انجيليسكي» لا يتكلم اللغة الإنجليزية. هكذا يقول لم أصدقه. ارتفع صوتي غضبًا. ارتفع صوته وغضبه. نهرني لابد بالروسية الفخمة وأشار لي أن أعود إلى الطابور. هل ستتشاجر هنا في موسكو؟ سألني أبودومة. دعك عني. كنا متعبين تمامًا. عدت إلى الشرطي الشاب الصغير وعلا صوتي فعلاً وصوته أيضًا. لا أحد منا يفهم ما يقوله الآخر، غير أنه يدرك أني أريد أن أخرج من الطابور الطويل، وأنا أدرك أنه يرفض والواقفون صامتون والجو رمادي سحابي فالملابس كلها قاتمة. وعدت إلى الطابور لكن كان دوري الحقيقي قد اقترب فأشار إلى بالتقدم وأنهى الموقف بسرعة وبلا تفتيش للحقائب لكن كانت ساعة قد مضت.

خرجنا إلى زحام أكثر. الآن يلتقى المسافرون والقادمون والمنتظرون والمودعون ولا أحد فى استقبالنا ولا نعرف أين نذهب. المصريون هنا كثيرون. ومعى أرقام تليفونات لبعضهم وأرقام تليفونات لاتحاد الكُتّاب. أتصل أولاً باتحاد الكتاب. لا أحد يرد. قالت لى موظفة الاستعلامات: إن اليوم السبت. لا أحد يعمل بعد الظهر. لم يكن معى أرقام تليفونات المنازل لأى من المستشرقين. لا إيجور يرماكوف ولا فاليريا كيريتشكا ولا أولجا فلاسوفا. معى تليفونات منازل المصريين د. أبو بكر يوسف أكبر المترجمين من الروسية إلى العربية. وأحمد الخميسى وعزة الخميسى، لكن صديقى الشاعر أبادومة فجأة اكتشف أننا أدباء كبار. وأنه كان يجب أن ينتظرنا أحد من السفارة المصرية. لابد أن نتصل بالسفارة المصرية. معى أيضًا أرقام تليفوناتها. وبالذات رقم تليفون د. حسنى إبراهيم المستشار الثقافى، لم نجد أحدًا بالسفارة. سيكون ذلك سببًا فى حزن الدكتور حسنى إبراهيم فيما بعد. وسيقابلنا وسيساعدنا كثيرًا ،لكن قبل العودة بأيام لأننا لم نبق فى موسكو فى مكان واحد. حاولت الاتصال بأى من المصريين لكن صديقى الشاعر يقاوم ويرفض، لا يريد أن يستقبله أحد إلا أعضاء من السفارة المصرية، لكنى طبعًا لم أنتظر، اتصلت بالدكتور أبى بكر يوسف شيخ المترجمين. وكان بداية انفراج الأزمة. كيف حقًا لم يقابلكم أحد؟ انتظر نصف ساعة

وكلمنى. بعد نصف ساعة أخبرنى أنه تحدث مع أولجا فلاسوفا فى منزلها وعلم منها أن البرقية تعلن أن وصولنا غدًا وليس اليوم، وأعطانى رقم تليفون بيتها. وقال أستطيع أن أكلمها حتى يجد لنا هو مخرجًا.. واعتذر انه لا يستطيع أن يأتى بنفسه. فهو لا يستطيع قيادة السيارة فى هذه العاصفة الثلجية. فضلاً عن أن السيارة نفسها معطلة. لكنه لن يتركنا وقال لى مرة أخرى أن انتظر ولا أغادر المطار حتى تنتهى المسألة.

- حضرتك مصرى؟

- أجل وحضرتك؟

- فلسطينى. مهندس قادم من الجزائر. الاحظ أنكما فى ازمة.

كان يقف جوارنا منذ وقت طويل يحاول استخدام التليفون الوحيد لمكاتب الاستعلامات، وهو نفس التليفون الذى نحاول استخدامه وسط زحام شديد.. وسألنى.

- هل هذه أول زيارة لكما إلى الاتحاد السوفيتى؟

- نعم..

- أنا أيضًا. وأحاول الاتصال بالسفارة الفلسطينية. هل من خدمة أؤديها لكما؟

- نحن كاتبان مصريان، إذا كان هناك ملحق ثقافى ربما يكون قد سمع بنا، وإذا كان يتابع مجلة «الكرمل»

فلابد أنه اصطدم باسمى. نحن نريد سيارة فقط تقلنا إلى أى فندق معروف نجد فيه مكانًا ومعنا تكاليف الإقامة. فقط نريد تسهيل المهمة.

- هذا بسيط. سأتحدث أنا إليهم بذلك.

ولا أعرف وحتى الآن لا أعرف لماذا احتج زميلى الشاعر، عاد يقول إننا أديبان كبيران ولابد أن يستقبلنا أحد من السفارة المصرية. إن فى هذا الذى أريده عارًا كبيرًا لنا ولمصر، وإنه يرفض تمامًا الذهاب عن أى طريق إلا سفارتنا التى يجب أن تحترمنا وتقدم لنا المساعدة. ووقفت حائرًا ومندهشًا من هذه الصرعة التى أصابت صديقى الشاعر. ماذا يريد بالضبط: استقبالا يليق بنا أم خروجًا من المأزق؟

واندفعت معه فى نقاش عنيف. ضحكنا منه بعد ذلك كثيرًا، ولم يفصح لى أبدًا عن سر صرعته تلك. حتى ونحن نضحك بعد ذلك، ولم أستطع طبعًا أن أخيب رجاءه وأقول إننا حتى لو كنا فى مصر فلن نجد من يعرفنا خارج دائرة الكُتّاب الضيقة، لم أشأ أن أذكره بذلك، وكان المهندس الفلسطينى قد بدأ يتكلم تليفونيًا بالسفارة، لكن يبدو أنه لم يفهم الأمر جيدًا. لقد اعتذر عما حدث وتركنا وانصرف، وأنا أقف فى غاية الدهشة أتأمل صديقى الشاعر الذى راح من جديد يتصل بالسفارة المصرية و هو يعرف أنها مغلقة.

بعد ذلك اتصلت بالكاتب أحمد الخميسى فلم أجده. وبأخته عزة الخميسى فلم أجدها وتذكرت أن معى رقم تليفون المستعربة أولجا فلاسوفا فهاتفتها.

- إبراهيم. أنا آسفة جدًا البرقية تعلن قدومكما غدًا. وأنت لا تعرفنى. سوف ترانى غدًا وتدرك أنى لا أستطيع القيادة فى هذا الجو. هناك عاصفة ثلجية مفاجئة والحرارة عشر درجات تحت الصفر وسوف تعذرنى لكن لا تترك المطار. أنا أحاول مع الدكتور أبى بكر أن نجد لكما مخرجًا.

ولم أتأخر فى الاتصال من جديد بالدكتور أبى بكر يوسف الذى قال لى ألا أتحرك من جديد وأنه وجد صديقًا يعرفنى وهو فى الطريق إلىّ الآن. وتنفست.

* * *

- إبراهيم عبدالمجيد فى موسكو؟

- فاروق رضوان؟!

وعناق طويل. أطول من مظاهرات يناير ١٩٧٧ التى أصيب فيها فاروق برصاصة شجت بطنه ونشرت كل الصحف صورته فوق المتظاهرين، لم أر فاروق بعد ذلك إلا مرة بعد خروجه من السجن ومرة فى الإسكندرية فى الصيف، ثم سافر إلى موسكو ليحصل على الدكتوراه فى القانون ويعمل فى الترجمة..

- أحضرت لك بالطو من باب الاحتياط. أعرف أنك لا تملك بالطو.

وحمدت الله أن «أبو دومة» لم يحتج. لقد بدا أنه يعرف فاروق أيضًا وفاروق بدوره حدثه عن أمسية شعرية قديمة فى السبعينيات كان أبودومة فيها نجمًا وكان لچيهان السادات عليه تعليق أنه شيوعى. امتلأ أبودومة بالسرور.

فها هو واحد من مستمعى شعره. وقال إنه فى تلك الليلة لم ينم فى البيت، وظل يمشى هائمًا فى شوارع القاهرة خوفًا من چيهان السادات التى لا يعرف لم حضرت الأمسية الشعرية. وبدأت رحلتنا.

وسط البياض المديد
يقف ماياكوفسكى غاضبًا

الثلج لأول مرة فى حياتى. البياض الشاهق فوق كل شىء رغم ظلام الليل. الجليد متراكم على جانبى الشوارع الواسعة وحول الأشجار العارية سامقة الارتفاع سوداء الجذوع والسيقان والأغصان كأنما أحرقها برد الشتاء وأنا مبهور بالجو فى الليل ولا تفارق عيناى الطريق الواسعة وفى الفضاء تتطاير هابطة ندف الثلج القطنية. يقول صديقى فاروق رضوان إن العاصفة فاجأت الجميع، وإن الذين يعيشون فى موسكو يعرفون أن شهر شباط (فبراير) هو أكثر شهور السنة تقلبًا، وأنا أتابع الجماعات القليلة من السكارى الذين يخرجون من بين الأشجار يترنحون فى الطريق ويشيرون إلى السيارات، وكادت

سيارتنا تصطدم بواحد منهم، وكنت أيضًا أتأمل بدهشة العناق الطويل بين رجل وامرأة على جانب الطريق. أمضينا ليلة طيبة فى منزل صديقنا الذى وصلنا إليه عن طريق طويلة دائرية حول موسكو فى منطقة قريبة من جامعة موسكو. منطقة جديدة شوارعها غير مرصوفة غطاها الجليد لمسافة لا تقل عن ربع متر على الجانبين وحفرت السيارات طريقها بالقوة فوقه. هيأت لنا زوجة صديقنا الألمانية الشرقية ضيافة منعشة أنستنا تعب الرحلة وساعات المطار الثلاث ولأن الذكريات كثيرة طال سهرنا وشاهدنا على شريط فيديو عبدالرحمن الأبنودى وهو يلقى قصيدته الطويلة الموت على الأسفلت وفيلمًا تسجيليًا مجريًا عن الانتفاضة الفلسطينية، وفى الصباح بعد نوم قليل ويقظة مبكرة فى الساعة السابعة تقريبًا رأيت النهار الضبابى الرمادى لموسكو، الأرض البيضاء أكثر نصاعة والأطفال يخرجون مبكرين بالزحافات للتزحلق بين الأشجار وحاولت من منزل صديقى الاتصال بالقاهرة، كنت أريد بشغف أن أصف المشهد الصباحى الرائع لأحد لكن للأسف تعذر الاتصال.

فندق بيكين ولكن

عرفنا بعد اتصال تليفونى بأولجا فلاسوفا أننا سننزل بدءًا من اليوم فى فندق (بيكين) وهناك سيقابلنا المترجم المنوط به مرافقتنا، وأخذنا فاروق

إلى الفندق الصغير الجميل الذى لم نبق فيه غير يومين فقط. الفندق يقع فى وسط المدينة فى ميدان ماياكوفسكى، ويبدو من طرازه أنه كان أحد القصور القديمة قبل الثورة. أمام الفندق مباشرة تمثال ضخم لماياكوفسكى غاضبًا يريد أن ينطلق من فوق قاعدته، وأمام التمثال يمتد على الجانبين شارع جوركى الطويل الواسع وعلى يسار الفندق وخلف التمثال سينما موسكوفا وأمامه محطة مترو ومسرح. فى فندق بيكين قابلنا المترجم ـ مستر فيتالى ـ طويل ذو شعر أصفر وادع الملامح خجول رحب بنا بوداعة لا تليق إلا بالشعب الروسى، وحين تحدث أدركنا أنه تعلم العربية فى بلاد الشام وبالفعل كان يتحدث كأنه واحد من أهل الشام إذ أمضى هناك خمس سنوات من حياته. لقد صحبنا إلى الغرفتين المحجوزتين لنا وسألنا فى خجل شديد: ما رأيكما، هل هى غرف طيبة؟ ما رأيك أنت؟ ليست طيبة بأى حال مستر فيتالى. ليس مهمًا أنها سيئة الفرش، ولكنها ضيقة جدًا. إنك لا تستطيع أن تستقبل فيها صديقًا واحدًا.

فعلاً، معكما حق سنحاول مع إدارة الفندق تغيير الغرف ولم يكن ذلك سهلاً، كان المستحيل بعينه، المناقشات حامية فى الكرملين والوفود من جميع الجمهوريات. القيادات الحزبية. مجالس السوفييت. لإقرار قوانين الملكية وتحديد أوضاع الجمهوريات المتمردة وكل الفنادق محجوزة وكل الغرف فضلاً عن وجود أعداد كبيرة من رجال المال والأعمال

الأمريكان واليهود خاصة يملئون موسكو وينتظرون قوانين الملكية الخاصة. لا مفر من البقاء فى غرفتنا يومين ثم نذهب فى رحلة إلى كييف ونعود فنجد اتحاد الكتاب قد حل المشكلة حتى لو انتقلنا إلى فندق آخر. ولأن اليوم كان الأحد فلم يكن هناك برنامج من أى نوع ومن ثم طلبنا من مرافقنا الطيب أن يتركنا «سوف نتسكع فى شوارع موسكو واذهب أنت إلى بيتك يا صديقى».

ليل الشوارع

لم يقل لى أحد إنه يمكن للإنسان فى مثل هذا الصقيع أن يتناول الآيس كريم بشغف. خرجت من الفندق الصغير الجميل بعد العصر أتسكع فى الشوارع. اتجهت إلى محطة المترو المواجهة لتمثال ماياكوفسكى حيث ينزل إليها ويصعد منها أعداد كبيرة من البشر. لم أتقدم أكثر من خطوات ووجدت نفسى مرتبكًا لا أعرف ماذا يفعل الناس حين يركبون المترو، كنت وحدى حيث رفض زميلى الشاعر النزول خوفًا من البرد بالليل. بعد ذلك عرفت أن الذين يضعون قطعًا من النقود فى صناديق معلقة بالحائط إنما يفعلون ذلك للحصول على قطع صغيرة من فئة الخمس كوبيكات وأنهم بعد ذلك يضعون قطعة واحدة منها فى صناديق أرضية فيسمح لهم بالمرور منها أوتوماتيكيًا إلى السلالم الكهربية الجبارة التى تنقلك إلى رصيف المترو تحت الأرض فى العمق البعيد

المثير بحق لى على الأقل. وقد ركبت المترو بعد ذلك أكثر من مرة وعرفت أنه يمكن للفرد الواحد وبخمس كوبيكات فقط أن ينتقل بين جميع محطات المترو تحت الأرض، ويقطع كل خطوط المترو التى تمتد لحوالى مائتى كيلو متر تحت موسكو ويجرى توسيعها الآن أيضًا. بالطبع لن يفعل هذا إلا مجنون واكتفيت بالابتسامة للفتيات والسيدات اللاتى يقفن بالمحطة حاملات زهور القرنفل الحمراء فى أيديهن ينتظرن أحبائهن. تركت محطة المترو إلى الطريق. نظرت إلى تمثال ماياكوفسكى وعبرته بسرعة. سأعود إليه فيما بعد لأنظر إليه مليًا ومشيت فى شارع جوركى لأجد زحامًا شديدًا أمام محمل صغير. طابور طويل وزحام من الفتيات والشبان والأطفال يأكلن الآيس كريم. يا إلهى فى هذا البرد العاصف، كانت العاصفة لا تزال لليوم الثانى ترسل ندف الثلج من الفضاء إلى الأرض طائرة فى خطوط هندسية متوازية مثيرة للعين بحق ووقفت أحاول أن أتذكر أين قرأت عن ذلك ولم أتذكر.

فى اليوم التالى حين قابلت الشاعر والمستعرب إيجور يرماكوف قال لى إن تشرشل أصابته الدهشة نفسها حين زار موسكو لأول مرة بعد هجوم الألمان على الاتحاد السوفيتى، وقال لستالين إن شعبًا يأكل الآيس كريم فى درجة حرارة تصل إلى أكثر من عشرين تحت الصفر لابد أن ينتصر فى الحرب. وأحسست بالبرد لأول مرة، وكان الليل قد غشى

المدينة لكن الشوارع ذات الأرضية البيضاء تضىء أمام عينى رغم انغلاق المتاجر على طول امتداد الشارع وكل الشوارع، لم تكن بى رغبة فى العودة إلى الفندق فوقفت أمام باب سينما موسكوفا مترددًا ودفعت الباب ووقفت فى الجو الساخن للمكيفات كانت هناك جماعات قليلة من الشباب والفتيات وكان مظهرى مثيرًا للجميع. البالطو وطول جسمى ربما لا يثيران أحدًا فى موسكو، كل الناس ترتدى البالطو والأجسام الروسية طويلة لكن ما كان فوق راسى هو الذى كان مثيرًا، لم تكن (شبكة) روسية إنما (لبدة) صعيدية اشتريتها من ميدان العتبة بالقاهرة. ورأيت الابتسامة على وجوه الجميع وفتحت لى الابتسامة الطريق للكلام ولكن مع فتاتين صغيرتين ربما لا تتجاوزان الواحدة والعشرين من العمر. فتاتان شديدتا الشبه ببعضهما لوجه كل منهما حمرة التفاح، ولفم كل منهما نفس الدقة والابتسامة الطفولية. أحسست بهما توءمين لهما نفس العينين الزرقاوين ونفس الجسم الصغير الدقيق وعلى رأس كل منهما نفس غطاء الرأس الأبيض، وحول عنق كل منهما نفس الكوفية البيضاء. للحظة فكرت أنه ربما ليست هذه سينما فلم يكن على الجدران أية صور للفيلم المعروض إلا صورة كبيرة. أفيش لممثل لا أعرفه وممثلة لا أعرفها، وكل شىء مكتوب بالروسية التى لا أعرفها أيضًا وسألتهما هل تتحدثان الإنجليزية. وسيتكرر ذلك كثيرًا مع فتيات وشبان. نادرًا ما وجدت

أحدًا من الناس العاديين يعرف لغة أخرى. قال لى شابان سأتحدث عنهما فيما بعد جاءا من إحدى جمهوريات البحر الأسود إلى موسكو وقابلتهما عند أسوار الكرملين أن تعليم الإنجليزية أو غيرها فى المدارس السوفيتية بائس جدًا وأن ذلك ربما كان من آثار السياسة الستالينية،، فالستار الحديدى لم يكن يعنى إخفاء الأسرار فقط إنما قطع العلاقة بين الشعوب السوفيتية وغيرها بقطع اللسان نفسه.

أجابت الفتاتان بالروسية «لا» أسهل كلمة فى العالم هى كلمة «لا» تعرفها من حرف «الإن» الذى تبدأ به غالبًا فى كل اللغات. سألتهما بكلمات روسية قليلة «سينما» أجابتا «د» أى نعم بالروسية القليلة التى أعرفها، ولم تكفا عن الابتسام والنظر إلى اللبدة الصعيدية فوق رأسى قلت «يا إيجيبت» أنا مصرى فظلتا تبتسمان سألتهما عن الفيلم هل هو روسى فقالتا إنه «فرانسوسكى» إذًا هو فيلم فرنسى. ولم أستطع أن أتقدم فى الحديث وتعقد اللسان. أشرت بيدى معبرًا عن رغبتى فى رؤية الفيلم فأشارتا إلى الطريق إلى شباك التذاكر. قطعت تذكرة دخول وعدت إليهما فوجدتهما لا تكفان عن الابتسام. سألتهما ما إذا كانتا أختين فقالتا: لا. سألتهما عن اسميهما فوجدت واحدة تسمى تانيا والأخرى تسمى تانيا أيضًا. تشابه فى الاسم والشكل والابتسامة الطفولية المبهجة وغير أختين ليكن، كانت الساعة السابعة والفيلم سيبدأ فى الثامنة. أمامنا ساعة

للحديث، درست منذ سبعة عشر عامًا اللغة الروسية لمدة ستة أشهر حين كنت أعمل فى مشروع الترسانة البحرية فى الإسكندرية. وكان فيها خبراء سوفييت وهانذا الآن اتذكر من حديثهما بعض الكلمات التى بدا أنى نسيتها، سألتهما ما إذا كانتا طالبتين فعرفت أنهما عاملتان وسألتهما على البيريسترويكا فقالتا: «خرشوه» وهل هذا رأى الناس ممن هم أكبر سنًا فقالتا: إن هذا رأى اسرتيهما أيضًا وسألتهما رغم المشاكل التى نسمع عنها فقالتا «نى برومليما» يعنى لا مشاكل ولم تكف عنى الابتسام أبدًا، وبالطبع لا يمكن للمرء أن يفكر للحظة أن هناك توجيهات حزبية من أى نوع ليقول الناس ذلك، وسوف يقول غيرهما ذلك ولكن لم تكن اللغة حاجزًا بينى وبينهما لوجود المترجم مرة ولوجود معرفة باللغة الإنجليزية ولو قليلة عند من أحدثه، ولكن هذا سيحدث فيما بعد وسأسمع لأول مرة أشياء مدهشة لم يخطر ببال أحد انه يمكن أن يقولها احدا ومضى أكثر الوقت ونحن صامتون ولكنا حين دخلنا إلى السينما كان على أن أنصرف بسرعة أولا لأن رقم مقعدى جاء فى الدور الأول وهما فى الدور الثانى، ولم يكن من الممكن تغيير المقاعد بسبب الزحام، وثانيًا لأن هذا الزحام من شباب وفتيات جاءوا اثنين اثنين ولا يمكن لأحد أن يفرط فى مقعده لخاطرى، وثالثًا لأن الفيلم مدبلج وناطق كله باللغة الروسية، ورابعًا لأن السينما لم تكن جيدة كانت ضيقة واشبه بسينمات الدرجة الثالثة فى

مصر. خرجت إذًا إلى الشارع مرة أخرى دون وداع لهما أو منهما. قابلنى الهواء البارد فأنعشنى. لا أريد أن أعود إلى الفندق إلا متعبًا للنوم، لا أريد أن أسجن نفسى فى أية غرفة. مشيت متباطئًا فى شارع جوركى أتفرج على فاترينات المحال المغلقة وأنتقل من جانب إلى جانب لأزيد مسافة المشى وفجأة على اليسار وبعد مسافة ليست طويلة وجدت أضواء مشمشمة وزحامًا وحركة ومحل طويل زجاجى الجدران مضاء بأضواء ساطعة وعلى بابه لافتة «ماكدونالد» ها هنا أمريكا. هذا هو مطعم ماكدونالد الذى افتتح مؤخرًا فى موسكو لبيع الهمبورجر وهذا هو الزحام الذى تراه فى البداية وفى العادة على كل ما يأتى من أمريكا. حدث هذا فى مصر بعد عام ١٩٧٣ حين بدأت فترة الانفتاح، وانتشرت محال ويمبى وكنتاكى فرايدتشكين هذه المحال التى اصبحت الآن خالية وقذرة أيضًا. لأن لأمريكا لونًا وطعمًا ورائحة دائمًا، هذه حقيقة قاهرة للبشر حتى الآن على الأقل، وها هو ماكدونالد يختار شارع جوركى الكبير ليس لأنه كبير ولأنه فى قلب المدينة ولكن ربما لأن جوركى هو الذى زار أمريكا وعاد يكتب «الحضيض». كان الخارجون من المطعم أكثر من الداخلين، حاولت الدخول فأوقفنى الشرطى وتحدث وأشار بيديه فعرفت أن المحل يغلق أبوابه لكنى رأيت نظافة العاملين ونظافة المكان كله ولما سألت أولجا فلاسوفا فى اليوم التالى قالت: إن صاحب المطعم

عقد بعد الافتتاح مؤتمرًا صحفيًا عالميًا داخل المطعم وفجأة شاهد أحد الصحفيين صرصارًا يمشى أمامه ورآه فى نفس اللحظة صاحب المطعم أو مديره فقال للصحفى بخبث نادر: هأنت ترى كل شىء فى موسكو يأتى إلىَّ حتى الحشرات: هل سيحدث لماكدونالد ما حدث لويمبى وكنتاكى فى مصر؟ هل لن نجد بعد ذلك فى المدينة غير الصراصير فقط؟ ذلك أمر يحتاج إلى وقت لنعرف... وعدت أمشى فى شارع جوركى، مشيت كثيرًا ولا يقابلنى إلا عدد قليل من الناس وبين حين وآخر يمر جوارى «ترولى باص» وجنود الحراسة يمشون على مهل فى معاطفهم الرمادية وأحزمتهم العريضة وقفازاتهم الرمادية أيضًا وعصيهم القصيرة يهزونها بانتظام، وعدت ماشيًا إلى ميدان ماياكوفسكى وقلت لنفسى هذه فرصة لأن أراه الآن بعد أن انقطعت الحركة فى الميدان أو كادت، واقتربت لأرى ملامح الغضب على وجهه وفى ثنيات معطفه أمام الريح الوهمية وتذكرت الغضب الذى أودى به إلى الانتحار وتذكرت انتحار يسينين أيضًا الذى قال: إننا من بعيد نرى الأشياء أوضح والذى جن بإيزادورا التى كانت مجنونة بالرقص وبالشعر وعمرها ضعف عمره والذى تزوجها؛ لأنهما معًا كانا خارج الزمن..كانا أسبق من الزمن فى عنفهما وثورتهما، كانا يعيشان زمنًا من الشعر والجنون. تذكرت ألكسندر بلوك ثالث المستقبليين الثلاثة، المستقبليون قبل الثورة والرفاق بعد الثورة ومرض

ألكسندر بلوك العضال وبيروقراطية الحزب التى أخرت علاجه وحين قررت كان الوقت قد فات. وبيروقراطية الحزب التى احتج عليها ماياكوفسكى بالانتحار وقصيدته المستقبلية الجبارة «سحابة فى سروال» والترجمة الرائعة لحسب الشيخ جعفر عن الروسية والترجمة المصرية المغامرة للشاعر المصرى الشاب رفعت سلام، وترجمتى المتواضعة التى لم يقرأها أحد لأنى ترجمتها لنفسى فقط وأنا فى سن الثامنة عشرة عن الإنجليزية. ترجمتها لنفسى لأشم حرائق الثورة التى تنبأ بها ماياكوفسكى والتى لم أرها أبدًا. مسكين أنا وأبناء جيلى لم نشاهد إلا انكسار الثورات. مسكين أنا وأبناء جيلى لم نتنبأ إلا بالهزائم، وأخطأت أول وآخر مرة فى موسكو إذ وضعت يدى فى جيب البالطو فطرت فى الفضاء لأقع على ظهرى فوق الجليد الذى تجمد فوق الأرض، فسار مثل ألواح الزجاج به نتوءات كثيرة بارزة قوية كالصخر الناشف، نهضت متألمًا. آلمنى ظهرى وربما لولا البالطو لأصبت إصابة قوية، ومضيت إلى الفندق ولم أنظر جيدًا إلى ماياكوفسكى، وفى الفندق القريب قابلنى زميلى الشاعر أبودومة الذى كنت نسيته يضحك بشدة وسعادة الأطفال، وقد رآنى من نافذة الفندق وأنا أقع وقال لى : إنه كان خلفى أتوبيس كبير كاد يدهمنى لولا أننى قمت بسرعة. وأخذتنى الدهشة، كيف رأى الأتوبيس؟ لقد كنت تركت الشارع وصعدت إلى المربع العالى الذى يحوط التمثال والذى

لا يمكن أن يصعد إليه أى أتوبيس، لكنى وجدته مُصرًا بشدة على أننى كدت أموت تحت العجلات، فقلت: إذًا الحمد لله لقد نجوت بفضله من موت محقق يا صديقى، وتركنى لينام، أمضيت أنا بعض الوقت قبل النوم فرحًا جذلان مندهشًا من رؤى صديقى الشاعر الجميل.

الترجمة إلى الروسية !

ايجور يرماكوف شاعر ومستعرب معروف فى الأوساط العربية. فى غرفته الصغيرة فى الدور الثانى بمبنى اتحاد كُتّاب وأدباء موسكو كان لقاء سريع. مبنى اتحاد الكُتّاب كبير. قديم. يتوسطه تمثال لتولستوى الشيخ.

إنه المبنى نفسه الذى وصفه تولستوى فى «الحرب والسلام». والمبنى ذو طلاء أصفر، كثير من المبانى المهمة فى موسكو ذات طلاء أصفر لسبب أجهله. وحديقة المبنى التى يتوسطها تمثال تولستوى مغطاة بالجليد.

فى غرفة يرماكوف كثير من الكتب العربية: روايات وأشعار ومجلات. وهناك صور أيضًا لمعين بسيسو ومحمود درويش وعبدالرحمن الخميسى، ويرماكوف رجل عملى سريع التفكير وسريع الكلام، ومندهش أيضًا تبرق عيناه بالاستغراب فى كثير من الأوضاع العربية. أخبرنى بأن إحدى قصصى القصيرة مترجمة إلى الروسية. وأن هناك عددًا من المقالات

مكتوبة عن أعمالى كتبها المستشرق ديمترى ميكولسكى الذى يتعذر الاتصال به لانفصاله عن زوجته، ليس له مكان ثابت، وتحدث بسرعة عن وضع الترجمة الآن، أصبح أصعب من ذى قبل. بعد «البيريسترويكا» سيقل الدعم الذى تقدمه الدولة لهذه الأعمال. لماذا لا يتقدم العرب لدعم مشروعات الترجمة؟ سيتم قريبًا ترجمة مختارات من أعمال الكُتّاب الفلسطينيين والإسرائيليين معًا. كُتاب إسرائيل والأرض المحتلة. الكُتّاب الذين ينادون بالسلام من الجهتين... الآن تناقش فى الاتحاد السوفيتى قوانين الملكية الخاصة. الفنادق مليئة برجال المال والأعمال من أوروبا وأمريكا، ولا أحد من العرب. هل يريد العرب أن يفعل لهم الآخرون كل شىء؟ دائمًا ينتظر العرب حتى تضيع الفرصة ثم يحاكمون الجميع. مازوشية. ربما لا يجب أن يلوم العرب على التواجد اليهودى فى الاتحاد السوفيتى. الاتحاد السوفيتى الآن يبحث عن طريق جديد. ربما هو طريق ثالث بين الاشتراكية والرأسمالية، طريق يحافظ على المنجزات الاقتصادية ويفتح الطريق للديمقراطية. حركة الدعوة للديمقراطية لاتهدأ فى الجمهوريات. وليتوانيا تسعى للاستقلال - أعلنت فيما بعد - وسيشهد الاتحاد السوفيتى قيام الأحزاب لأول مرة. أين العرب وسط هذه التغيرات؟ ولماذا لا يفكر العرب فى قيام مؤسسة عالمية للاستشراق تجتمع كل عام أو عامين لمناقشة قضايا الترجمة والاستشراق،

إن شيخًا واحدًا من شيوخ النفط يستطيع أن يتبنى هذا المشروع. ثم إن هناك مشروعًا لإصدار طبعة من مجلة «الأدب» السوفيتية بالعربية. طبعة تحتوى على الإنتاج العربى والسوفيتى من الأدب معًا. هل من يساعد فى تمويل المشروع؟ سؤال قال لى أن أطرحه على العالم العربى. هل تعرف معنى ترجمة القرآن الكريم وبيعه فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى مستر إبراهيم؟ كان هذا آخر استفساراته وتركته لأستعد للسفر إلى كييف ومعى زميلى الشاعر محمد أبودومة. سألنى ما رأيك فى هذا الكلام. أجبت: إن المشكلة الدائمة أننا نحن الكُتّاب لن نكون أبدًا ملوكًا ولا حكامًا ولا رؤساء جمهوريات. سنظل نسمع مثل هذه الأسئلة ونظل حائرين لا نملك إلا أن نعيد ترديدها علّها تصل آذان أحد. فهل تصل فعلاً؟

قطار النهار

الرحلة إلى كييف شابها بعض التوجس.. تشير نوبل والإشعاع. هل لا تزال هناك بقايا للإشعاع. التليفزيون المصرى بث منذ أيام خبرًا عن حالات السرطان التى بدأت تظهر على جلد الجيل الجديد من الأبقار فى ريف أوكرانيا، وكيف لا ينصاع الفلاحون لأوامر السلطة السوفيتية ويذبحون هذه الأبقار ويبيعون لحمها ويأكلونه، لكن هل كان الخوف يمنعنى من الذهاب إلى كييف، عاصمة روسيا القديمة، مدينة التلال السبعة والكنائس

والكاتدرائيات الباهرة؟ لقد نسيت خوفى كله بمجرد أن دخلت محطة السكة الحديد فى موسكو بالليل لأستقل قطار النوم إلى كييف.

فى المحطة ظلام، وسواد المعاطف والليل والأرض الرمادية والصمت الجليل للمسافرين، لمبات صفراء صغيرة خافتة مخنوقة ورائحة السكة الحديد التى تصاحب عمرى كله، ولدت لأب يعمل فى السكة الحديد بالإسكندرية. طفت فى الصحراء الغربية حتى السلوم على الحدود مع ليبيا. أما الصحراء الشرقية فكنت أكتفى بحكاياته هو عن القطار الذى يصل إلى غزة. ومن قبل كان يصل إلى قلب فلسطين ومات أبى وظلت رائحة السكة الحديد وحكاياته فى روحى. وحين رحلت إلى القاهرة سكنت فى منطقة إمبابة بجوار خط سكة حديد الجنوب، كنت فى طفولتى أعظم من يقفز من القطارات ومنها. ودائمًا لا تفارقنى رائحة المازوت الساقط بين العوارض وفوقها وبين القضبان، لكننى الآن سأركب القطار الروسى أشهر القطارات فى تاريخ الأدب، لكن هل أخدع نفسى إلى هذا الحد؟ سأركب الآن قطارًا مكيفًا جميلاً، أنا وأبودومة، وأولجا فلاسوفا.

فى غرفة القطارالصغيرة الأنيقة ذات السريرين جلست أنا وأبودومة، فى العودة ستكون الغرفة ذات أربعة أسرة، وسيكون معنا فاديم الذى أرجئ الحديث عنه.

فى القطار السوفيتى لا يوجد حجز مستقل للنساء وآخر للرجال وربما فى أوروبا كلها. لم أسافر إلى أوروبا من قبل ولا أعرف.

لم يكن من الممكن النوم تلك الليلة ليس لأن الراديو يبث فى غرفة القطار المناقشات الحامية فى الكرملين حول الجمهوريات المتمردة. ولا لأننا لا نعرف كيف نطفئ هذا الراديو لكن لأنه كان لابد أن أخرج من الغرفة لأدخن سيجارة فى نهاية العربة وحين خرجت رأيت. ويا هول ما رأيت. ليل أبيض شديد البياض على جانبى القطار. التلال بيضاء والغابات منبسطة ترتفع هامات أشجارها السوداء السامقة فوق بساط أبيض لا ينتهى، بياض شاهق تكاد تسمع له صوتًا يدعو للسكينة والوداعة والأحلام. انا مبهور بالشتاء الروسى. قلت لنفسى وانا اتأمل أشجار الكستناء والميلاد العالية العارية وأتذكر ليالى دستوفسكى البيضاء فكيف إذًا أنام؟ لكنى نمت ساعتين، من الخامسة صباحا حتى السابعة، شبعت من بياض الدنيا وسكون القطار، ومن الذكريات التى راحت تتراءى فى ذهنى، وقلت أنام ساعتين لأستطيع التجوال بين تلال كييف وكنائسها وأتفرج على وجوه فتياتها ونسائها اللاتى لم يخلق الله مثلهن فى الوداعة والجمال الباهر، لكننا لم نمضِ فى كييف إلا ليلة واحدة لسوء الحظ. شاهدنا بالنهار متحف شهداء الحرب الثانية المفتوح فى الهواء، وتمثال «أم الأبطال» الضخم الشاهق الارتفاع ومتحف شيفيشنكو

شاعر أوكرانيا العظيم ورسامها العبقرى الذى كان «قنًا» اشتراه فنانو بطرسبرج «لينينجراد» وأعتقوه لكنه لم ينعم كثيرًا بالحرية فى السادسة والعشرين دخل فى صدام مع القيصر نيقولا الثانى. رسم له صورة كاريكاتورية شوهاء. فسجنه القيصر فى سيبيريا عشر سنوات ليعود شيخًا عجوزًا ولم يبلغ الأربعين بعد ويموت.

فى كييف وفى مقر اتحاد الكُتّاب الأوكرانيين. التقيت مع البروفيسور ميكيتينكو رئيس تحرير أكبر مجلة أدبية فى أوكرانيا الذى راح يتحدث عن العلاقات القديمة بين أوكرانيا وروسيا القديمة والبلاد العربية، وأنا تحدثت عن المشاريع السوفيتية العظيمة فى مصر والتى كان لى الحظ أن أعمل فى أحدها فى مطلع شبابى لألتقى بخبراء من أوكرانيا ومن لينينجراد ومن أكثر من مكان فى الجمهوريات السوفيتية. ثم حدثته عن الروس الذين هربوا إبان الحكم القيصرى وجاءوا إلى مصر وأقاموا فى الإسكندرية، وانشأوا أول وآخر جريدة فى القطر المصرى باللغة الروسية وعن الرسائل القديمة المتبادلة بين الشيخ محمد عبده وتولستوى الذى صور القوزاق على حقيقتهم كرجال أحرار. والذى كان مشروعه العالمى للسلام فى رسائله إلى صديقه المصرى وإلى غاندى أيضًا. وقلت له إن أولئك الروس الهاربين أسموا جريدتهم «أسكرا» أى الشرارة وإن هذا الاسم أطلقه أحد الأحزاب الشيوعية المصرية

المبكرة على نفسه. لكن الرجل وغيره لم يكن يريد الخوض فى ذلك. وقلت له إننا نتحدث عن الآمال الكبيرة للشعوب. لا عن أحد بالذات. كان هناك حزن على الوجوه وكنت أفكر كيف استطاع هذا الشعب أن يعيش رغم كل ما مر به من ظلم وحروب ومؤامرات.

لقد كان فى اللقاء أيضًا أكبر شاعر أوكرانى الآن فاديم سكودا الذى لم يبلغ الخامسة والأربعين بعد والذى سيكون لنا معه حديث مستقل، وكانت المستعربة أولجا فلاسوفا تترجم الحديث بيننا لثلاث ساعات فأرهقت إرهاقًا كبيرًا. لقد وجدتهم فى كييف يعرفون الكثير عن شعرائنا وأدبائنا الكلاسيكيين. لكنهم يعرفون القليل عن الأجيال الجديدة والقليل جدًا فكانت فرصة لى ولأبى دومة أن نتحدث بإسهاب عن خريطة الرواية والشعر العربى الآن.

فاديم وفاديم

فاديم الأول هو فاديم سكودا واحد من أكبر شعراء أوكرانيا الآن. وفاديم الثانى هو طالب جامعى ولاعب كونغ فو ورفيق قطار الليل فى العودة إلى موسكو. لقد أمضينا فى كييف ليلة واحدة وعدنا فى مساء اليوم التالى ولم نشبع بعد من المشى والجرى فى شوارعها المنحدرة حيث بنيت المدينة على تلال سبعة وبينها.

ولا من تباشير خضرة الربيع حيث يذوب الجليد فى كييف مبكرًا عن موسكو، ولا من السكون المشبع بالجلال داخل الكنائس التى لا تهدأ حولها الحركة.

حـركـة الزائرين السـواح وحـركـة الـزائرين مـن أهل المـدينـة الذين أتوا بالشـمـوع للزواج ولطلب الرحـمـة للموتى. يخيل إليك فى كييف أو موسكو أن كل الناس تزور الكنائس الآن وحركة ترميم الكنائس واضحة فى كل مكان. وفى موسكو يجمعون التبـرعات لإعـادة بناء كنيسة المسيح المخلص التى هدمها ستالين وأقام محلها حمـام سباحة. والمثير - لى على الأقل - فى الكنائس التى دخلتـهـا كـان وجـه المـسـيح. ليس هو الوجه الشاحب فى الأيقونات الأوروبية، ولا المصرية أيضًا. هنا وجه المسيح أكثر امتلاءً وإشراقًا ونورًا. مسيح عليه مسحة من فلاحى الريف الأوكرانى.

لم نشبع من تباشير الخضرة ولا ذوبان الجليد ولا صعود التلال ولا رؤية المتاحف ولا الحديث العفوى العابر مع بولا وأولا وغيرها من الفتيات والسيدات فى الفندق والطرقات من اللاتى يحلمن بزيارة أمريكا وكندا. ولا من الأحاديث السريعة المتوترة مع إيجور الذى استقبلنا عند وصولنا أو إيجور الثانى الذى جاء يوصلنا للقطار عند رحيلنا.

ولما كدت أسأل إيجور الثانى عن سر انتشار اسم إيجور تذكرت الملحمة الروسية القديمة عن حملة الأمير إيجور على الغزاة من قبائل القفجق وكيف قام بالحملة كلها لأنه فاته ان يشترك مع أمراء روسيا فى الحمـلات السـابقـة فـذهب وحـده بدافع من تأنيب الضمير ليلاقى هزيمة كبيرة وتأسره القبائل وتصبح

حملته تراچيديا يونانية بكل معنى الكلمة. لقد كان الأمير إيجور من هنا، من أوكرانيا وكانت حملته فى القرن الثانى عشرالميلادى لكن كلاً من «الإيجورين» الذين قابلناهما كانا على عجل؛ لأنهما يعملان فى الجمعيات الشعبية الكثيرة التى انفجرت فى كل مكان تطالب بالديمقراطية.

كان فاديم الأول هو الشاعر فاديم سكودا كما قلت. أتى إلينا فى الفندق فى الساعة الرابعة بعد الظهر يوم رحيلنا يحمل كيسًا من البلاستيك داخله زجاجة من الفودكا وشريط طويل من السجق وعدة أرغفة محشوة بلحم البقر وبطيخة صغيرة مملحة وقال إنهم فى أوكرانيا يحبون أن يأكل الضيوف من عيشهم وملحهم.

اعتذر لنا عن ضيق الوقت الذى لم يعطنا الفرصة لنرى الريف الأوكرانى وكرم فلاحى أوكرانيا وتكلم عن أحلامه الكبيرة فى دراسة مقارنة بين الفلكلور الأوكرانى والمصرى خصوصًا، وكنت طوال الحديث مبهورًا من دخوله علينا بالكيس البلاستيك البسيط وبالطعام والرغبة البسيطة الجميلة أن يقاسمنا الخبز والملح. لقد تعبت أولجا فلاسوفا من الترجمة بيننا لأننا اندفعنا أنا وهو فى حديث طويل من القلب بعد أن تركنا الشاعر أبو دومة ليشترى غطاء رأس «شبكة» روسية، لكن أولجا الرفيقة تحملت عناء الترجمة كلها لثلاث ساعات كاملة.

مما يبهر فاديم سكودا أن تعداد جمهورية أوكرانيا حوالى اثنين وخمسين مليونًا وهو رقم قريب من تعداد جمهورية مصر. ومما يبهر فاديم سكودا أن تاريخ المصريين يمتد للوراء لخمسة آلاف سنة وأكثر ومما يوافق عليه فاديم السلام فى الشرق الأوسط. السلام الرديء أفضل من حرب بلا طائل. هكذا قال أكثر من شخص قابلته، ولأنى كنت ألمح إحساسهم بأنهم ضحوا كثيرًا من أجلنا وغيرنا من شعوب العالم الثالث كنت أسكت بعد أن كنت أقول إنه لا أحد يكره السلام ولكن العدل هو المطلوب ولا معنى للسلام دون عودة الحقوق العربية وقيام الدولة الفلسطينية. وقلت لفاديم «الثانى» فى القطار وكنا أربعة فى غرفة واحدة. أنا وأبودومة وأولجا فلاسوفا وهو: إن النزوع إلى الديمقراطية فى الاتحاد السوفيتى يكون خطيرًا إذا أدى إلى استقلال الجمهوريات المتمردة. إن الغرب يذكى هذا النزوع ليحدث التفكك المخيف للاتحاد السوفيتى. لكنه سكت ثم قال: لتذهب لاتفيا وليتوانيا وأستونيا وغيرها إلى الجحيم. إنها جمهوريات لا معنى لها. إن شعوب الجمهوريات الجنوبية فى الاتحاد السوفيتى تعيش فى وضع أفضل من شعوب روسيا القديمة لأنها تحافظ على دخلها القومى وتأخذ نصف دخل روسيا أيضًا. لقد كلفتنا كوبا وانجولا وغيرهما الكثير. هكذا قال أيضًا. وتأملته هو الصغير ذو العشرين عامًا تقريبًا. وبدا لى شديد الثقافة والذكاء، كان يتحدث معى بالإنجليزية

مباشرة ومع أولجا فلاسوفا بالروسية، وهو الأوكرانى، ومع أبى دومة بالمجرية ـ أبو دومة حاصل على دكتوراه فى المجر، وتذكرت الشخصيات المضطربة شديدة الذكاء عند ديستوفسكي. رغم أنها ليست أوكرانية. وكان فاديم أيضًا مولعًا بالباراسيكولچى ولديه عناوين العرافات فى موسكو وكييف. وختم فاديم الصغير الحديث بقوله: لقد قتل ستالين ثلاثين مليونًا. وقتل النازى فى الحرب عشرين مليونًا من الشعوب السوفيتية. إن أجمل الناس ماتوا بين ستالين والحرب ولم يبقَ إلا الصراصير، ونحن أبناء الصراصير. كان قاسيًا فى تعبيره لكنه كان ممتلئًا بالحزن والغضب.

نحن الآن فى موسكو وفى فندق آخر، فندق روسيا الضخم الواقع فى مركز المدينة أمام الكرملين ويتكون من اثنى عشر طابقًا وفى كل طابق سبعمائة غرفة، يا إلهى، يقولون لأنه احترق من قبل وعليك أن تتخيل كيف كان الحريق. للفندق أربع بوابات لو ضللت الطريق ودخلت من واحدة غير التى تأخذك لغرفتك لوجدت نفسك فى متاهة بين الغرف والطوابق، ذلك حدث معى كثيرًا فى مطعم الفندق الكبير، فى جناحنا الشرقى ترقص بالمساء وتغنى فرقة موسيقية ترتدى ثياب مادونا الأمريكية، وأمام الفندق زحام من سيارات التاكسى التى سمح لها بحرية العمل فتركت الشوارع وجاءت تبحث عن السياح.. إن ميزة هذا الفندق الوحيدة أنه قريب من الكرملين، فكنت فى

المساء وبعد كل عشاء أخرج إلى الميدان الأحمر لأتفرج مع المئات من السياح وأهل موسكو على تغيير حرس متحف لينين حيث يثوى جثمانه المحنط الذى لم يفسد بعد.. تغيير الحارسين يتم كل ساعة يقفان خلالها بلا حركة ولا نامة وهما فى العادة شديدا الشبه ببعضهما، فى الوجهة والجسم وبالطبع الملابس والسلاح. لقد ظننت فى البداية أنهما تمثالان من الشمع.،كانت مشكلتى أمام الكرملين هى التصوير. لقد انتهت بطارية الفلاش معى ولم أجد فى موسكو كلها بطارية فلاش، ثم انتهى الفيلم أيضًا فأصابنى الغيظ. إن أجمل الصور أمام الكرملين هى تلك التى تأخذها بالليل وليس بالنهار حيث تسقط الأضواء المعلقة أعلى محل (غوم) الضخم على جدران الكرملين وقبابه الحمراء فتصبح قطعة ساحرة من الجمال. هذا هو الكرملين الذى أراد نابليون هدمه والحمد لله أنه لم يفعل. هذا هو الكرملين الذى بناه القياصرة وحاول ستالين أن يبنى ما هو أعظم منه فبنى سبع عمارات شهيرة فى موسكو على الطراز نفسه يقولون الآن إنه بناها بالمعتقلين السياسيين وإنها جاءت شديدة الإتقان؛ لأن أى خطأ كان كفيلاً بأن يجعل الحرس يلقون بصاحبه من أعلى. طبعًا لم يفسر لنا أحد ماذا كان يحدث حين يتم الخطأ فى الأدوار الأولى!

أمام الكرملين أكثر من مصور يعلق لافتة أنه مقابل اثنى عشر روبلاً يصورك ويرسل إليك الصورة فى

بلدك أينما كنت فى العالم وكعادتى أشك فى هذه الأشياء، حاولت أن يصورنى ويعطينى الصورة فى اليوم التالى لكنه طلب مئة دولار. كذا. وقلت له سأعود مرة أخرى ومعى كاميرا لا ينقصها شئ ومن يدرى قد يحدث ذلك حقًا.

الدهشة مستمرة

بدأ الجليد يذوب، انتهت العاصفة الثلجية وارتفعت الحرارة فوق الصفر، ومشت مياه جداول صغيرة على جانبى الشوارع، وامضينا يومًا فى ضاحية (زاجورسك) حيث الكنائس العتيقة ووفود السياح والأعراس ويومًا آخر فى متحف بوشكين بقلب العاصمة. نماذج الرسوم والمنحوتات من كل بلاد العالم شئ رائع حقًا، ولكنها لم تدهشنى كما ادهشنى القسم المصرى الخاص بالعصر القبطى كيف وصلت هذه اللوحات والأيقونات إلى موسكو! لابد أن مثلها أضعافًا فى متاحف أخرى. كيف لا نعرف الكثير عن أولئك الفنانين المصريين القدامى من العصر القبطى. وفى نفس اليوم الأحد، الخامس والعشرين من شباط (فبراير) كانت مظاهرة ضخمة منظمة قريبة من المتحف. مظاهرة تضم ربع مليون مواطن سوفيتى أغلبهم من موسكو، لم يكن من السهل أن نترك المظاهرة دون أن نطل عليها بعض الوقت. لقد سبق وتم الإعلان عن هذه المظاهرة من قبل. وحين ذهبنا وجدنا الميدان الكبير محاطًا بقوات

الأمن من كل الأزقة، واحتاج المرور أن نتحدث إلى أحد الضباط الذى لم يسمح لنا بالعبور لكننا اقتربنا بقدر الإمكان..كان أعلى الأصوات يعيد تقييم الثورة البلشفية كلها، واوجز ثورة تشرين الأول (أكتوبر) فى انها انقلاب بلشفى بعد أن كان القيصر نيقولا الثانى تنازل عن الحكم فى شباط (فبراير) من عام ١٩١٧ وبشكل ديمقراطى لقد وعد البلاشفة الشعب بوعود خيالية براقة.

الأرض لمن يزرعها والمصانع للعمال ثم لم يحدث ذلك أبدًا.. هل كان أحد فى الدنيا يحلم بأن يسمع فى قلب موسكو ذلك؟ لقد أمضينا اليوم نتحدث أنا وزميلى الشاعر محمود أبودومة فيما نسمعه ونراه كل يوم، وحين تغدينا فى نادى اتحاد الأدباء فى اليوم التالى التقينا مع الشاعر شوكت نيازى رئيس اتحاد الأدباء فى طاجكستان الذى جاء يرانا ويعتذر عن عدم قدرته على اصطحابنا إلى طاجكستان بسبب الاضطرابات هناك لكننا حين ذهبنا لإلقاء محاضرة نظمتها لنا عزة الخميسى مع اتحاد الكتاب فى جامعة باتريس لومومبا عرفنا أننا أول أديبين مصريين يدخلان هذه الجامعة منذ إنشائها، لم نصدق، كنّا نظن أن كثيرًا من المصريين تعلموا فى هذه الجامعة خاصة أيام الناصرية. قيل لنا لم يحدث ذلك، كل من أتى إلى الاتحاد السوفيتى كان يوفد إلى جامعة موسكو أو غيرها فى إحدى الجمهوريات لكن باتريس لومومبا لم يدرس فيها أحد، لم يدرس أحد فى

جامعة الشعوب، ظلت بالنسبة إلى مصر فى كل العهود مكانًا لتخريج الكوادر الشيوعية، مكان مخيف، ولذلك حتى لا يوجد بها كتب أدبية مصرية.

لا روايات ولا أشعار لأحد، طيب، إذا كان ذلك حدث مع الحكومات كيف لم يقدم اى أديب من الذين زاروا موسكو كثيرًا كتبًا لهذه الجامعة؟

ما علينا من أسف. لنبدأ المحاضرة، كان لقسم اللغات الشرقية، طلاب من السوفييت الذين سيصبحون فيما بعد مستعربين. ودار حوار طويل حول الرواية والشعر. والرواية والشعر الفلسطينى، وأيضًا كامب ديفيد والانتفاضة الفلسطينية، لكننى ظللت مندهشًا من أننا أول أديبين عربيين يدخلان هذه الجامعة.

وزالت الدهشة بالليل حين عزمنا نيقولاى تشير كاشن، واحد من أبرز الروائيين السوفييت الآن. رواياته كلها تدور فى عالم البحار وعادة ما تنزع إلى التسجيل، فهو يتابع الكوارث البحرية ويحولها إلى مواقف إنسانية، مواقف للتحدى والإرادة الإنسانية كان كرمه فائق الحد على بساطته. اعتذر لنا بلباقة عن صغر حجم البيت السوفيتى ونحن نتناول العشاء فى ركن من المطبخ معه وزوجته وصديقة وصديق لهما يعملان بالسينما، مخرج من طشقند لقد غنت لنا ابنة نيقولاى الصغيرة أغنية مدرسية بالإنجليزية، وشعت ابتسامات زوجته فى المكان شعورًا بالبهجة،

وقرأ علينا نيقولاى بعض آيات القرآن الكريم فلقد كان ضابطًا بحريًا وطاف بكثير من البلاد العربية، الموانئ العربية، ويحب الإسكندرية وبورسعيد لقد جاء إلى الإسكندرية ضمن القوات البحرية التى جاءت تحرس الشواطئ المصرية خلال حرب تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣.

وهو يعد نفسه لكتابة رواية عن الأسطول السوفيتى التى غرقت إحدى قطعه الكبيرة أمام شواطىء بورسعيد عام ١٩١٦ وهو أيضًا سمى ابنه ذى الثمانى سنوات باسم عربى هو «سعيد» وهو مشغول بعمل سيناريو مع صديقه المخرج الذى معنا على العشاء عن أحد جنرالات البحرية السوفيتية الذى قاد تمردًا بحريًا ضد بريجينيف عام ١٩٧٥ وتم إعدامه. للأسف نسيت اسم هذا الضابط الجسور الآن وضاعت منى المفكرة التى بها اسمه، قلت له وللمخرج الشاب اتمنى أن يكون لفيلمكما من الشهرة ما كان ولايزال لفيلم إيزنشتين المدرعة بوتو مكين. ذلك كان عن مدرعة مشهورة فى ثورة مشهورة عام ١٩٠٥ وهذا عن مدرعة مغمورة وضابط لم يسمع به أحد ولكن الظروف اختلفت الآن.

وانتهت الليلة بقصائد من الشعر لصديقى محمد أبودومة وعزف على الجيتار لنيقولاى تشير كاشن وكانت ليلة نادرة.

في صباح اليوم التالى التقينا بمعهد الاستشراق مع المستشرقة الكبيرة فاليريا كيريتشينكا ورفيقاتها من المستشرقات. فاليريا تعرف الكثير عن الأدب العربى عامة والمصرى خاصة، ولها كتاب مميز عن القصة والرواية المصرية، وزميلاتها من الجيل الجديد يتابعن حركة الشعر الحداثى الجديد وواحدة منهن تعد كتابًا عن الرواية فى سوريا ولبنان، والتقينا أيضًا بكونستانتين تشو جونوف رئيس تحرير مجلة الآداب الأجنبية التى ترجمت مؤخرًا رواية نجيب محفوظ (أسعد الله مساءك) والذى أبدى رغبة طيبة فى تلقى الأعمال الأدبية المصرية الجديدة، ورحنا ننتقل من مجلة إلى مجلة ومن مكان إلى مكان محوطين دائمًا بودٍّ نادر حتى كانت الليلة الأخيرة.

اللقاء الأخير

فى ليلتنا الأخيرة بموسكو أحسست أن زيارتنا كانت قصيرة، وخرجت أنا وأبودومة لنلقى نظرة أخيرة على الكرملين.

كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً ونحن لا ندرى. لم يكن هناك أعداد كبيرة من السياح. كانت هناك نسمة باردة كأنما العاصفة التى استقبلتنا ستعود وتودعنا، لكننا لاحظنا أن هناك شابين فى العقد الثانى من عمريهما ينظران إلينا ويبتسمان وليس صعبًا أن تتعرف على أحد فى موسكو. يكفى أن تبتسم فيبادلك الابتسام وتتحدث فتجد قلبه مفتوحًا

للحديث معك رجلاً كان أم امرأة شابًا أو فتاة. بسرعة تحدثنا معهم كان أحدهم يتحدث الإنجليزية بصعوبة لكن بوضوح وقواعد سليمة اسمه أصلان هكذا قال: طلبت منه أن يعيد الاسم فضحكت تذكرت صديقى الكاتب إبراهيم أصلان وكذلك حدث لأبى دومة فانطلقنا نضحك ماذا كان يحدث لو كان إبراهيم أصلان معنا كانت تكون مصادفة جميلة، سألته هل أنت من موسكو؟ كنت أخمن أنه من بعيد وقال: إنه ليس من موسكو وإنما من إحدى جمهوريات البحر الأسود الصغيرة. قلت هذا سر اسمك. إن أصلان هى فى الأصل أرسلان التركية هكذا قال لى إبراهيم أصلان يومًا نقلاً عن يحيى حقى قال الشاب ربما فالأتراك احتلوا بلادهم يومًا ما وجمهوريتهم نصفها مسلمون ونصفها مسيحيون، وهو مسيحى وزميله مسلم واسمه آلان وضحكنا وكان آلان لا يعرف الحديث بالإنجليزية فبدا خجلاً وزميله يترجم لنا حديثه قال أصلان: إنه يقوم بدراسة مقارنة بين أسلوب همنجواى وتورجنيف ولما عرف أننا أدباء فرح كثيرًا وفرحنا نحن أيضًا.

دعوانا إلى سهرة معهما فى الفندق، كان ينزلان فى نفس فندق روسيا، والغريب أنهما كانا ينزلان فى نفس الطابق الذى نزلنا نحن فيه.

فى غرفتهما لم نتحدث فى الأدب قالا لنا إنهما فى بلادهم يحترمون الأكبر سنًا ويقدمون له أجمل ما

عندهم كرمًا وتقديرًا، ولكنهما الآن فى موسكو ليس لديهما غير الفودكا والبيبسى كولا، وإنهما يأسفان جدًا لأنه لا يوجد شىء آخر. لقد بدوا لنا مثل كل من قابلناهم يتحدثان بطيبة مذهلة، وتحدثا ولكن عن أحوال الناس، لم يختلف حديثهما عن كل ما سمعناه فى الطرقات أو القطارات أو المظاهرة. الاختلاف كان فى آلان وحده. لقد صمم أن يتحدث بالروسية التى لا نعرف منها إلا كلمات قليلة وقال: إننا سنفهم ما يقول رغم فارق اللغة، كان يتحدث بحماس وانفعال وقوة وكنا نفهم ما يقول ونفاجئه بفهمنا حين نعيد ما قاله بالإنجليزية فيترجمه له أصلان فيصفق طربًا إذ أننا فهمنا بالضبط، كانت مشكلة آلان أنه يبحث عن ديانة، إنه مسلم ولكنه يحتاج إلى وقت طويل حتى يزيح التراب الذى سببته سبعون سنة من الحكم البلشفى.

الرحلة الثانية

باريس للمرة الأولى

مكان قديم فى القلب

ما الذى تشكله باريس لكاتب مثلى لم يرها من قبل. بل لم ير من أوروبا كلها إلا موسكو وكييف وفيينا بسرعة، أو طيارى بلغة المرحوم حسين فوزى؟

باريس قراءة متراكمة. حقًا، لكنها أيضًا حلم مراوغ. ليس فينا، معشر الكُتَّاب، من لم يحلم بباريس، وليس مهمًا بعد ذلك أن يحبها أو يكرهها. وفى مصر نعرف باريس منذ الطفولة الباكرة.

«اتجهت السفن سرًا من ميناء طولون على البحر المتوسط لتصل إلى الإسكندرية فى غفلة من الأسطول البريطانى، الذى كان يبحث عنها لتدميرها، واستولت الحملة الفرنسية على الإسكندرية بعد مقاومة من أهلها ومحافظها محمد كريم، ثم اتجهت الحملة إلى القاهرة فهزم نابليون وجنوده المماليك وفر مراد بك إلى الجنوب وإبراهيم بك إلى الشام،

ودخل نابليون القاهرة زاعمًا أنه جاء لتأديب المماليك، والحقيقة أنه جاء يقطع طريق إنجلترا إلى الشرق وطامعًا فى تكوين إمبراطورية فرنسية».

تلاحقنا منذ الطفولة الأسئلة عن أسباب الحملة الفرنسية ونتائج الحملة الفرنسية وثورات المصريين وفضل شامبليون فى اكتشاف أسرار اللغة الهيروغليفية.. ما أعجب فرنسا هذه فى الوجدان المصرى. ننسى أن الحملة الفرنسية كانت أول مظهر من مظاهر الاستعمار فى العصر الحديث، ونذكر دائمًا أنها كانت بداية اليقظة القومية والوطنية وأنها فاجأتنا نحن - المتخلفين - فى ظلام العصور العثمانية بالعلوم الحديثة التى لا تزال تدهشنا. وما أعجب فرنسا هذه، فنعرف كيف احتلت المغرب العربى وقسوة الاستعمار الفرنسى - رقم المليون شهيد الجزائرى فيه من قسوة الاستعمار قدر ما فيه من استبسال الجزائريين - و ننسى دائمًا دورها الاستعمارى، ولا ننسى أبدًا كتاب رفاعة الطهطاوي تخليص الإبريز فى تلخيص باريز، وأثره الفكري والسياسى على النخبة المصرية، ولا ننسى رفاعة نفسه الذى لولا ذهابه إلى فرنسا ما ساهم المساهمة الكبرى فى تاريخ مصر السياسى والاجتماعى ولاننسى نهضة محمد على الذى اتكأ بقوة على الفرنسيين «الكولونيل سيف - السان سيمونيين - البعثات إلخ» ولا ننسى مفكرينا الكبار أدباءنا من نوع طه حسين وحسين هيكل وتوفيق الحكيم... وما

أعجب فرنسا هذه دائمًا. يفتتنا فى مشروع قناة السويس غرام إسماعيل باشا بأوجينى وننسى ظلم شركة قناة السويس نفسها وتعسفها وتحكيم نابليون الثالث الظالم وما جلبته القناة على مصر من وبال.. وهكذا يظل هذا اللغز غير مفهوم، مستعصى الحل، فى أمر باريس وفرنسا منذ ظهور الفرنسيس على مسرح العصر الحديث حتى حرب الخليج، رغم أننا خسرنا الرهان على باريس.

بهذا الإحساس ذهبت إلى باريس. إحساس لم أسع إليه، بل فطنت إليه بعد عودتى، ولكم ادهشنى ذلك، وأدركت أنه لا معنى لمحاولة فهم ذلك اللغز. باريس مدينة لها فى القلب مكان وكفى.. ورغم كل ما قرأته عن باريس أو رأيته فى السينما فحين تتاح الفرصة لرؤيتها يبدو الأمر كأنما كان حلمًا بعيدًا وتحقق. حلمًا جميلاً، ولا يهم إذا خاب سعيك فيها أو طاب. هكذا تلقيت الدعوة الكريمة من معهد العالم العربى لقضاء أسبوع فى باريس فى شهر مايو من هذا العام ١٩٩٢ بالضبط فى الفترة من الثامن عشر حتى الخامس والعشرين من الشهر المذكور، وللاشتراك فى ندوة عن الرواية المصرية مع عدد من ألمع كُتّاب الرواية المصريين هم : شيخنا إدوار الخراط وصنع الله إبراهيم وبهاء طاهر وجميل عطية إبراهيم وإبراهيم أصلان.. لقد كان جميلاً بحق من «بدر الدين عرودكى» و«فاروق مردم بك» الا يحملانا أكثر من الاشتراك فى ندوة واحدة، فأتيح لنا من الوقت

قدر طيب نستطيع فيه المشى فى باريس، كنت مشتاقًا لرؤية عدد من الشباب الكُتَّاب، ربطت الصداقة بينى وبينهم عن بعد، أو عبر لقاءات سابقة فى بغداد والقاهرة، شريل داغر والحبيب السالمى وعيسى مخلوف وخميس خياطى وكاظم جهاد والشاب الوديع جميل حتمل، لقد بدا لى بعد حرب الخليج أننى لن أرى أحدًا ممن عرفت أبدًا بعد ذلك.

هكذا شملنى إحساس عارم. ولما قابلتهم فى اليوم التالى لوصولى، أحسست كما لو كنت أراهم كل يوم. شعور غريب حقًا. مشاعر كثيرة اكتشف أنها كانت كاذبة وتسببت فيها حرب الخليج. على أى حال الكذب فى هذه الحالة كذب المشاعر، أمر طيب فليس أجمل أن ترى أصدقاءك فتشعر أنهم لم يكونوا بعيدين عنك. لذلك تركت لجسدى أن يحقق مطالبه، ولم تكن غير المشى فى باريس. لم أعد قادرًا منذ اليوم الثانى لوصولى على الجلوس فى مكان واحد أكثر من دقائق. تركت جسدى ونفسى للشوارع تسلمنى للشوارع.

عن المشى

كان الدكتور ثروت عكاشة معنا على الطائرة نفسها التى أقلعت من القاهرة ظهر يوم الإثنين الثامن عشر من مايو، كان مدعوًا مثلنا من معهد العالم العربى لكن كشخصية ثقافية بارزة تشارك فى افتتاح معرض الكتاب، الذى سيقام لمدة أسبوع، كنت أعرف ذلك وكنت قررت أن أذهب إليه بالدرجة الأولى حيث

يجلس لأقدم إليه روايتى الجديدة «البلدة الأخرى» وأقدم إليه نفسى. وقلت إنه سيكون لدى أربع ساعات كاملة هى تقريبًا زمن الرحلة من القاهرة إلى باريس وهى فرصة طيبة للحديث مع مثقف وفنان كبير مثل الدكتور ثروت عكاشة. لكن الذى حدث أنى لم أفعل ذلك؟ لماذا حقًا لم أفعل ذلك وأنا من عشاق كتابات الرجل الأدبية والفنية ومن العارفين تمامًا بفضله على الثقافة المصرية أيام كان وزيرًا مسئولاً. مولع أنا بتضييع الفرص. مولع بذلك بالمعنى العميق للكلمة، لم يكن هناك فى رحلة كهذه أجمل من فرصة اللقاء بثروت عكاشة لكن هذا ما جرى. والغريب أنى لا أشعر بأى ألم على ضياع الفرص، كما لا أفرح حين أغتنمها. تتساوى لدى الذاكرة والنسيان. ميت يمشى فى حى، أو حى يمشى ميت. هكذا أشعر حين أنسى ماقررت أن أتذكره بشدة ما الذى فعل بى هذا؟ وهل كل الذين ولدوا مثلى فى النصف الثانى من الأربعينيات يتساوون معى فى هذا الحال؟

لكن أعود لأحدثك عن المشى الذى انتفض له جسدى بعد هبوط الطائرة إلى أرض مطار أورلى، لن أحدثك عن دهشتى البالغة وأنا أرى أرض فرنسا الخضراء كلها من الطائرة. لن أعيب على بلدى أنها صحراء. هكذا خلقها الله، ولن أعيب على أهلها أنهم يتركونها صحراء. هكذا خلقهم الله أيضًا!

بعد نصف ساعة من خروجنا من المطار وصلنا إلى فندق صغير لا بأس به هو فندق رويال كاردينال الذى يحمل رقم (واحد) بشارع المدارس (رى ديزيكول) هو إذًا فندق لا يمكن أن ينسى برقمه واسمه وموقعه. نزلت أنا بالغرفة رقم (٣٨) وأصلان بالغرفة رقم (٤٠) ونزل إدوار الخراط بفندق آخر قريب منا لم أستطع أن أحفظ اسمه، ونزل صنع الله إبراهيم الذى كان قد سبقنا بيوم فى فندق بعيد جدا. ولم يبق إلا بهاء طاهر وجميل عطية إبراهيم اللذان سينزلان معنا فى نفس الفندق كما قيل لنا.

يحدث فى مثل هذه الحالات أن الإنسان يجب أن يرتاح قليلاً، ويغير ثيابه بعد أن يأخذ حمامًا ساخنًا. وماكدت أشرع فى ذلك حتى سمعت طرقًا على باب الحجرة. فتحت لأجد أمامى جميل عطية إبراهيم. لقد وصل قبلنا إذًا وعرفنا أنه ينزل فى الغرفة رقم (٢٤) يحدث فى مثل هذه الحالات أيضًا أن يفرح الإنسان باللقاء وتستطيع أن تضيف إلى ذلك أن الفرح بلقاء جميل عطية إبراهيم يكون مضاعفًا. يتميز جميل بين الأدباء المصريين بالبساطة المذهلة والصدق النادر، وكان أول سؤال بادرنى به هو هل معك سجائر كليوباترا؟.. هكذا قبل أن نجلس.

بعد دقائق كنا، جميل وأنا وأصلان، نترك الفندق، يصحبنا جميل إلى الحى اللاتينى القريب جدًا كما عرفنا منه. لقد بدأنا المشى أو خيل إلىَّ ذلك لكن

الذى حدث أننا لم نمش كثيرًا، انتهى المشئ بسرعة تلك الليلة، كنت أنا سارحًا فى عدد السنين التى مرت منذ قرأت رواية سهيل إدريس (الحى اللاتينى) ربع قرن وربما ثلاثون عامًا. لا أقل من ربع قرن على أى حال. وقال لى جميل إن الحى اللاتينى يسمى الآن بالحى العربى لكثرة الطلاب العرب بالسوربون وجامعة باريس، لم أحاول التحقق من هذه المعلومة التى سمعناها من كل شخص تقريبًا. ما معنى أن يحاول الإنسان التحقق من معلومة لا تفيد. لقد انتهى الزمن الذى كان فيه المثقفون يذهبون إلى باريس ويعودون لبعث الهمة والنهضة فى شعوبنا العربية. الآن يعودون ليسوفوا على الشعوب ويرشدوا الحكام لأسهل الطرق لتضليل الشعوب، ويكرهون الشعوب. وما كدنا ندخل شارع سان ميشيل ونقترب من المقاهى والمطاعم التى يحفل بها الحى اللاتينى حتى فاجأنى جميل برغبته الثانية وهى أن يأكل طعمية - فلافل - مصرية. كان سؤاله الأول فى الفندق عن السجائر كليوباترا، والثانى الآن عن الأكلة المصرية الشعبية الشهيرة. لقد قرر جميل أن يدعونا إلى الفلافل على حسابه، جميل قادم من جنيف، حيث يعيش ويعمل بالأمم المتحدة مع بهاء طاهر، وهو قادم إلى باريس يرى مصر فينا، أدركت ذلك، وتركته يصحبنا إلى مطعم مصرى، لكنه نظيف طبعًا وفكرت فى جميل عطية إبراهيم الذى حين يزور القاهرة لا أراه إلا جالسًا على مقهى زهرة البستان يدخن الجوزة

المصرية الشهيرة، «الشيشة»، والذى قال لى يومًا، وما زال يقول، إن الحياة فى سويسرا تشبه الحياة فى أجزخانة، وهذا أمر ممل جدًا، أدركت عمق رغبته أن يرى مصر فبنا، وتوقعت أنه لنا يصحبنا بعد ذلك فى جولات باريسية، وهذا ماحدث بالضبط. اكتفى جميل بالمسافة القليلة من الفندق إلى معهد العالم العربى كل يوم ليلتقى معنا بالليل بعد عودتنا من المشى الذى لم نبدأه بعد. لقد انتهى المشى بسرعة تلك الليلة وقال جميل إنه يعرف باريس جيدًا وإنه لن يمشى بعد ذلك أكثر من سبع دقائق كل يوم، قال ذلك ضاحكًا، وكنا نقف أمام وتحت تمثال سان ميشيل نتفرج على النافورات المائية والقديس الجميل المعلق عاليًا وجماعات السواح، ونقرأ اللافتة السفلية عن بطولات الفرنسيين فى مواجهة النازية وعدنا إلى الفندق نسأل عن بهاء طاهر الذى لم يصل بعد من جنيف.

كان مفاجئًا لنا مساء اليوم الأول أن يستمر النهار لحوالى العاشرة مساء، لم أكن أحب مادة الجغرافيا لذلك نسيت أية معلومات ممكنة عن طول النهار وقصر الليل فى ربيع وصيف فرنسا، أذهلنى النهار الأبيض الرائق. قال جميل : إنه يحدث فى بعض بلدان الشمال الأوروبى أن يستمر النهار حتى الساعة الثانية عشرة مساء، يحدث ذلك فى هلسنكى فى الصيف مثلا. ولا أعرف ما الذى جعلنى أتذكر شهر رمضان والصيام وقلت إذًا يمكن تعذيب أى شخص بإجباره على الصيام فى هلسنكى، لكن جميل ضحك

وهو يقول لقد كانت هذه مشكلة للجالية العربية فى هلسنكى فعلا لكنهم، العرب استطاعوا استصدار فتوى تبيح لهم الإفطار على مواقيت تركيا.

لم نذهب إلى اللوفر

كان ذلك عجيباً بالنسبة لى، لم يحدث ذلك عمدًا. لكنه الوقت القليل الذى لدينا. أخذت منا كنيسة نوتردام نهارا كاملا. تلكأنا قبل الوصول إليها عند السوربون، وأخذنا بعض صور جوار مونتينى فى شارع المدارس وأخرى جوارى تمثال كورنى خلف السوربون ثم قطعنا سان ميشيل وتلكأنا كالعادة كلما مشينا فى هذا الشارع أمام وأسفل سان ميشيل نفسه، الملاك الحارس الجميل ذو التقاطيع الأبولونية الذى عرفه المصريون بشدة بعد الانفتاح الاقتصادى عام ١٩٧٣ باسم (سان مايكل) ماركة البلوفرات الصوفية التى كانت تستورد بكثرة ذلك الوقت. وعبرنا الضفة الأخرى لنهر السين لنقف فى الباحة المزدحمة بالسياح الألمان وبالحمام أيضًا أمام (نوتردام دى بارى) وعلى الفور فكرت أنه لا أحد من جيلى من أبناء المدن المصرية لا يعرف كنيسة نوتردام من الفيلم الجميل المأخوذ عن رواية فيكتور هوجو (أحدب نوتردام) الفيلم الذى مثله أنتونى كوين وجينا لولو بيريجيدا، وهو الفيلم الثانى فى تاريخ السينما العالمية عن هذه الرواية، جذبنى أمام الكنيسة تمثال على جانب الباحة الواسعة يقف منفردًا تكاد تخفيه

الأشجار العالية، تمثال قديم شاحب صامت لفارس عجوز على حصان ضامر، اقتربت لأقرأ وأعرف أنه تمثال شارلمان العظيم. يا الله ذلك الذى راسل الخليفة هارون الرشيد والذى أرسل إليه الرشيد مزولة كانت أعجوبة بالنسبة للفرنسيين ذلك العصر. هذا رجل من عصور الظلام أدرك القيمة العلمية للعرب، لكنه بدا لى متعبًا من طول التاريخ الذى مر به وعليه فى هذا المكان تحت المطر والريح وزرق الحمام والنظرات اللامبالية للسياح الذين تستدرجهم الكنيسة العظيمة بسرعة وتبتلعهم..

كان إدوار الخراط هو دليلنا فى هذه الرحلة، وفى غيرها بالنهار، وكان دليلنا فى الليل الشاعر المصرى المقيم بباريس منذ سنوات (محمد سيف) وهو شاعر عامية من نوع خاص جدًا، قليل الشعر، مكين فى ذاكرة الشعراء، ومعه الباحث الشاب أنور مغيث الذى يجهز الدكتوراه على يد الفيلسوف والباحث الاقتصادى الشهير جورج لابيكا حول (الرؤية المصرية للماركسية منذ القرن التاسع عشر). إنها رسالة دكتوراه شديدة الأهمية استطاع فيها الباحث أن يصل لوثائق نادرة من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تترجم للماركسية فى مصر، وسوف تناقش رسالته مع مطلع العام الدراسى القادم، أى فى خريف هذا العام.

وأخذ منا متحف بومبيدو نهارًا آخر، وأخذ متحف الانطباعيين نهارًا ثالثًا، الحقيقة أخذ نهارين لأننا فى المرة الأولى فوجئنا بإضراب موظفى المتحف فرحنا نتسكع حول برج إيفل ثم فى رحلة (الباتو) الشهيرة بنهر السين..

كان كثيرًا مما رأيته من لوحات سبق أنه رأيته فى مصر فى كتب أو موسوعات من الفن التشكيلى لكن الأمر يختلف عندما تقف أمام اللوحات الأصلية.

فضلاً عن الاختلاف بين الأصل الذى تراه مباشرة والصورة المطبوعة فى كتاب، وهو اختلاف موجود مهما بلغت دقة المطابع. فضلاً عن ذلك تشعر بما لا يمكن أن تشعر به وأنت ترى اللوحات فى كتب أو دوائر معارف، تشعر أن الفنانين أصحاب اللوحات الحقيقية التى أمامك أحياء، وهم الذين نظموا لك هذا المعرض لترى إنتاجهم الجديد وتشعر بالقداسة السحرية، وتمضى اليوم كله فى رحاب موسيقى سرمدية، تدخل متحف الانطباعيين الأورسيه، فى محطة السكك الحديد الشهيرة، وتمضى وقتًا رائعًا بين فنون النصف الثانى من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين، فنون النحت والتصوير بكل أدواته، وبصفة خاصة المدرسة التأثيرية، مونيه ومانيه وديجا ورينوار، وما بعد التأثيرية، فان جوخ وجوجان وماتيس وتخرج ملفوفا بأوتار الكمان العذب الحزين اللامع، للمدرسة

التأثيرية سحر على نفسى قديم، منذ أدركت أهمية الفنون التشكيلية للكاتب، أى كاتب، لقد كان أول كتاب قرأته فى الفن عن أولئك التأثيريين العظام الذين قلبوا مقاييس الفنون التشخيصية وظلوا مجهولين طويلاً، إن وقفة سريعة أمام لوحة مونيه الشهيرة «الإفطار على العشب» تجعلك تدرك حجم القلق والرعب الذى بثته هذه اللوحة فى الكلاسيكيين وأنصار الفن الطبيعى.. لذلك، وللمتعة الموسيقية الرائعة التى نهلت منها فى الأورسيه، صدقت ما قاله أكثر من شخص أن يومًا تقضيه فى الأورسيه أفضل من يوم تقضيه فى اللوفر، يحتاج اللوفر إلى وقت طويل بينما تستطيع أن تستوعب (الأورسيه) فى وقت قياسى رائع.

الأماسى

لم يعجبنى البيجال، ليس لأى موقف دينى أو أخلاقى، البلاد ليست بلادى والناس ليسوا أهلى، لم يدهشنى أن أرى صورًا ضخمة للعاهرات على جوانب مداخل الملاهى الليلية ولا محلات الجنس، وكما توقعت إلى حد كبير لا تجد فى مثل هذه الأماكن إلا نماذج من الضائعين. بالضبط كما تدخل سينما تعرض أفلامًا جنسية فى باريس، لن تجد فيها إلا نماذج من الشيوخ أو الضائعين، وما أبسط أن تتخيل شكل المحرومين من الإشباع الجنسى فى باريس! لذلك لم أندهش وأنا أرى العاهرات على غير ما

نراهن فى السينما، بل نماذج متهالكة من النساء، ولم اندهش وأنا أرى رجال الملاهى من القبضايات والقوادين الواقفين حول المناضد فى أحط الملاهى الليلية العربية. هناك وحدة بين بائعى ومبتاعى الجنس فى كل العالم، وهناك تشابه كبير يسم حتى الوجوه والحركات. بالليل العميق، حوالى الثالثة صباحًا، وأنا أقف مع إدوار الخراط وأصلان وأنور مفيث فى البيجال نبحث عن تاكسى يعود بنا إلى الفندق رأيت باصًا كبيرًا ينزل منه رجلان أشبه برجال البوليس راحا يدفعان بعض السكارى الجالسين فى الزوايا وعلى الأرصفة. سألت أنور مفيث هل يجمعون المتسولين؟ قال إنه جيش الخلاص. وهى فرق خاصة تتبع الكنيسة تجمع هؤلاء الضائعين فى الليل وتذهب بهم إلى الكنائس لتقدم إليهم وجبة ساخنة ثم ينامون بقية الليل ومع طلوع النهار تطلقهم فى الطرقات من جديد.

على أن الأماسى لم تكن كلها فى البيجال ولا (السان دى نى) كان هناك أكثر من لقاء مع بعض المصريين المقيمين فى باريس، وكان هناك سهر بعد أن ينتصف الليل، وينتهى الكلام مع جميل عطية إبراهيم وإبراهيم أصلان، وكان هذا السهر أمام التليفزيون. نوعًا من حب الاستطلاع، كنت أعرف أنى لن أستقبل شيئًا ذا قيمة لسبب بسيط جدًا هو أن ما أعرفه من كلمات فرنسية لا يكفى أبدًا لفهم مايحدث أو يقال أمامى، وكنت أعرف أن هناك دبلجة

بالفرنسية لكل شىء أجنبى يبث فى التليفزيون وأنه لا فرصة فى رؤية أو سماع شىء بالإنجليزية.

لكن أصبحت لى كل مساء جلسة لثلاث ساعات تقريبًا بعد الثانية عشرة أمام التليفزيون الذى لدهشتى الشديدة وجدته يبث أحيانًا بعض مباريات كرة قدم، وغالبًا يبث ندوات فكرية جادة، وفى إحدى قنوات أغانى لا تنقطع أكثر من نصفها أمريكى لكن أمسكت بثلاث سهرات درامية قصيرة وممتعة، كانت الأولى بعنوان passion أى عاطفة أو انفعال أو هوى إذا شئت. ادهشنى أنها حوار طويل بين شاب وفتاة لا يتغير مكانهما، شقة الفتاة الصغيرة، يتحركان باستمرار فى مساحة ضيقة بها، والمسألة أنه عاشق ولهان يريد تجسيد حبه لها وهى تصده مرة باللين ومرة بعنف، وفى النهار تعطيه قبلة صغيرة باردة لا معنى لها، ويخرج مندهشًا لكنه غير مبال. لقد اقتنع أنه لا سبيل لتجسيد حبه مع هذه الفتاة، بدا لى أن السهرة فى الأصل مسرحية من فصل واحد تستمر لحوالى الساعة، الذى أدهشنى هو أن يحدث أمامك فى التليفزيون هذا النوع من التمثيل شبه مسرحى دون تغيير فى المناظر ولا الحركة ومع ذلك لا تشعر بالملل.

فى ليلة أخرى رايت سهرة بعنوان L'annee Noire أى السنة السوداء، كانت الحلقة الثالثة، وبالطبع لم أر الحلقتين السابقتين، وكانت الحلقة مكرسة لفترة

صعود الفاشستية فى إيطاليا، رأيت هذه الحلقة بعد الساعة الثانية صباحًا ولا أعرف حتى الآن لأية طائفة من المشاهدين يبث التليفزيون الفرنسى هذه الحلقات الجادة.

على أن السهرة الثالثة والأخيرة التى رأيتها فى التليفزيون هى التى ادهشتنى أكثر، وأنا لا أذكر عنوانها ولا أسماء الممثلين فيها، لكنها كانت عن رجل بغل حقيقى جسدًا وعقلاً يعيش فى الريف، ويعمل جزارًا ومعه أمه العجوز وامرأة رائعة الجمال تكتشف أنها محظية يعاملها بكل قسوة ممكنة وهى لا تملك إلا جسدها الجميل تقدمه له كلما غضب، وكلما ضربها وأهانها، وحين تحمل منه يأبى إلا أن تجهض حملها لكنها لا تفعل وتنجب ولدًا لا يعترف بأبوته له، ولا يكف عن إيذائها، وهناك بعيدًا جدًا، فى نهاية العمر، بعد أن يشيب شعر راسه وشعر رأسها يوافق ويتزوجها فى الكنيسة، وتخرج متعلقة فى ذراعه غير مصدقة وتندفع فى بكاء عنيف مرير وهى تقبل يديه. أى قسوة ممكنة أكثر من ذلك، ولم أصدق نفسى وأنا أرى هذه المعاملة المنحطة لامرأة رائعة الأنوثة والجمال، لم أصدق أنه يمكن أن يلحق بالنساء كل هذا الضياع، ادهشنى أن توجد مثل هذه المعاملة للمرأة تجسدها الدراما الفرنسية بعد كل ما سمعناه عن المرأة الفرنسية وقرأناه ثم رأيناه أيضًا، إذ تصادف مع وجودنا نوبة حر مفاجئة خلعت فيها نساء وفتيات باريس ما طال وسمك من الثياب وارتدين ما قصر وخف وشف وانطلقن فى الشوارع.

لم يعجب فندقنا بهاء طاهر الذى جاءنا فى اليوم التالى لوصولنا ومعه زوجته السويسرية، رأى الحجرة ضيقة بحق! قابلناه على مقهى النجمة الذهبية المقابل للفندق فى صباح اليوم التالى لوصولنا، وكان يحمل معه الحقائب استعدادًا للذهاب إلى فندق آخر قريب، لكن ليومين فقط. وماذا ستفعل بعد ذلك؟ سأبحث عن فندق آخر، وحمل وزوجته الحقيبتين وتركانا إلى الفندق، أدركت أن الوقت الذى سيمضيه معنا بهاء طاهر سيكون قصيرًا. فهو سيبدد جزءًا منه فى البحث عن الفنادق، ثم إنه الوحيد الذى معه زوجته، ثم إنه أيضًا مثل جميل. جاء إلى باريس أكثر من مرة، لكنه يختلف عن جميل فى حبه للمشى، لكن فقط إلى الحى اللاتينى أو الشانزلزيه، إذًا سأظل أنا ومعى إبراهيم أصلان فقط نقطع شوارع باريس يصحبنا مرة إدوار الخراط الذى تجده فى الأسفار شابًا فى العشرين من عمره، ومرة صديقنا المصرى أنور مغيث.. لكننا فى حاجة إلى أن نستمع قليلاً إلى بهاء طاهر، وكثيرًا إلى جميل عطية إبراهيم وهذا ما سأفعله الآن.

أحاديث النجمة الذهبية

صار لنا لقاء يومى كل صباح على مقهى (النجمة الذهبية) (L'etoile d'or) المواجهة لفندقنا تمامًا. فى هذا اللقاء يتمدد الحديث بين الأدب والسياسة والفكاهة أيضًا، وكان طبيعيًا أن يتحدث بهاء طاهر

وجميل عطية إبراهيم على المقهى أكثر مما أتحدث أنا أو أصلان أو إدوار الخراط.

تحدث بهاء عن المحاولات التى جرت فى سويسرا من أجل عدم توزيع ودخول جريدة القدس إلى البلاد من قبل دولة عربية، والمحاولات التى بذلها زملاؤه من العرب المستيرين بالأمم المتحدة لوصول القدس إليهم وكيف فشلت محاولة تلك الدولة، بالطبع كان مدهشًا لنا عدم دخول القدس إلى باريس وإغلاق المحلات الفلسطينية أثناء حرب الخليج لكن هذا من سمات فرنسا العجيبة. كأنما فرنسا تعرف أننا ننسى بسرعة ولا نتذكر منها إلا وجهها الحسن، وتحدث بهاء عن الانهيارات النفسية الرهيبة فى أوروبا عمومًا، وعن الجنس المحرم والاغتصابات العائلية فى محيط العائلة الواحدة، وظاهرة صعود بعض الجانحين فى المساء إلى العربات الأخيرة بالمترو بجنيف فإذا تصادف أن تواجد بها فرد واحد هاجموه فى المترو نفسه، ونزوع المعالجين النفسيين إلى التعامل مع هذه الحالات بشكل معلن فتفاجأ مثلاً على محطة المترو بشاب يقدم إليك ورقة مطبوعة تتصورها منشورًا فإذا بها حكايته مع والده الذى كان قد اغتصبه فى طفولته وما صار إليه الآن، هكذا بوضوح كأنما المعالج النفسى الذى رسم له هذه الخطة يعيد تأهيله مع العلاقات الاجتماعية السوية وتخليصه من أى شعور بالنقص أو الألم أو الرهبة.

ولما رأى جميل عطية دهشتى من نظافة الشوار
ونظام المرور والمشى والهدوء قال لى إن باريس لا
تعتبر مدينة نظيفة بالقياس إلى جنيف، سويسر
أجزاخانة، والكلام لجميل طبعًا، لا مكان فيها لسيار
موديل العام الفائت أو تصدر صوتًا من أى نوع. لقد
جاء صديق لى من ألمانيا ليعيش فى سويسرا فمنعو
سيارته من الحركة داخل جنيف؛ لأنها مزعجة، ول
يكن مضى على شرائها أكثر من عامين، وحاول أ
يهديها لى أشحنها إلى مصر فرفضت وشكرته ول
يجد أمامه غير مقبرة السيارات يضعها فيها. ف
سويسرا جماعات الحفاظ على البيئة فى غاي
النشاط، وأنا مثلاً - والكلام لجميل - لا يمكن أ
أشترى شيئًا فى كيس بلاستيك، زوجتى ترميه فورًا.
والعلاقة بين الشعب والحكومة فى غاية الغرابة.
الحكومة تقيم استفتاءات على قوانين جديدة أ
مشاريع جديدة. والسويسريون دائمًا يقولون (لا) حتى
فى آخر استفتاء وكان حول تخفيض ساعات العمل
قال السويسريون (لا) وهناك جماعات مختلف
لمناصرة العالم الثالث منها جماعة ترفض أن تشترى
أية بضاعة مستوردة من العالم الثالث بسعر رخيص.
تصر على شرائها بسعر مرتفع باعتبار أن الدول
الأوروبية تستغل العالم الثالث، ويتجمع فارق السعر
عند هذه الجماعات وترسله فى شكل مساعدات
لبعض الدول الفقيرة، لكن الذى يغيظك فى سويسرا
وأوروبا عمومًا هو الرطوبة، كل شىء نظيف حقًا لكن

يمكن أن يتعفن بسرعة، يمكن أن ترتدى القميص ثلاثة أيام ولا يتسخ لكنه يتعفن عليك من عند الياقة مثلاً.. وتشم رائحة العفن، إن الليفة التى تستحم بها لا بد بعد الحمام أن تعرضها للهواء وإلا يصيبها العفن، ومن أهم العادات التى عانيت فى تعلمها عند حضورى أول مرة إلى جنيف أن أقوم بتنشيف شعرى جيدًا بعد الاستحمام. فى بلادنا، مصر، يحلو للإنسان أن يترك شعره مبلولاً بعض الشىء بعد الاستحمام. هناك فى سويسرا، كنت افعل ذلك وانزل الشارع فإذا شعرى يتحول إلى سلك من الجليد يتجمد الماء حول الشعر، احتجت وقتًا حتى أقلع عن عادتى المصرية وتعلمت مثلاً الا احك انفى تحت الجليد فى الجو البارد؛ لأنها ببساطة يمكن أن تخرج فى يدك فتجد نفسك بلا أنف. الأطفال هنا يتعلمون منذ الصغر بعض العادات المرتبطة بالجليد.

وهكذا راح جميل يعلمنا كثيرًا من العادات الواجبة فى البرد وتحت الجليد، وكان الجو حارًا على غير العادة فى باريس ومدهشًا!

الندوة

كانت هناك ندوة مقررة لنا نحن - الكُتَّاب المصريين، سبقتها ندوة بالفرنسية شارك فيها من المستشرقين؛ إيف جونزاليس وريشار جاكمون وآن مينكوفسكى. فى ندوتنا امتنع صنع الله عن الكلام بلباقة تاركًا الفرصة لزملائه، وتلعثم كالعادة إبراهيم

أصلان، وأخذ ادوار كالعادة أيضًا - المسألة بجدية
بالغة فتجاوز الوقت الذى خصصه بدر الدين عرودكى
لكل منا، وراح إدوار يتحدث عن تجربته فى البنية
الروائية ولواعجه الخاصة وشطحاته وغير ذلك مما
يقدر إدوار على قوله من عميق المعانى. بالطبع
تحدثت أنا، ولأنه كان مطلوبًا من كل منا أن يتحدث
عن تجربته، فحددت تجربتى كما أراها أقرب إلى
برهان زينون الإيلى على عدم الحركة. وزينون الإيلى
هو أحد الفلاسفة اليونانيين القدامى، أو الحكماء
السبعة كما كانوا يسمون. أولئك الذين سبقوا سقراط
وأفلاطون وأرسطو والذين قالوا بآراء مختلفة فى
أصل العالم.

لزينون الإيلى هذا برهان على بطلان الزمان وآخر
على انعدام الحركة. يقول عن الأخير إن السهم حين
تطلقه من القوس لا ينطلق إلى هدفه ولا يصل إليه
أبدًا، لأنه كى يصل إلى الهدف لابد أن يقطع المسافة
كلها وكى يقطع المسافة لابد أن يقطع نصف
المسافة، وكى يقطع نصف المسافة لابد أن يقطع
نصف النصف، وكى يقطع نصف النصف لابد أن
يقطع نصف نصف النصف، وهكذا إلى ما لا نهاية؛
لأنه لا يوجد نصف إلا وله نصف. وهكذا لن يتحرك
السهم من مكانه لأنه لا نهاية لأنصاف الأجزاء، وقلت
إن حالى مثل حال هذا السهم الذى تراه يتحرك
أمامك بحق لكنه لا يصل إلى هدفه، وهذا هو حال
جيلى، جيل ثورة يوليو، وحال أمتنا العربية حتى الآن

ولا أظن أن مـاكـتـبـتـه من روايات يبـتـعـد عن هذا الإحساس.

كـان بهـاء طاهـر - كـعادته أيضًا - مـحـاضـرًا من الطراز الأول تحدث عن تجربته ممزوجة بتجربة جيل الستينيات ثم تابع الكُتَّاب التاليين لذلك حتى وقتنا الراهن، وعندما تحدث جميل عطية إبراهيم توقف عند نظرة الغرب إلى الشرق وكيف لا يحب الغرب أن يرى من الشرق إلا نفسه، وهذا هو ما يحدد ما يمكن ترجمته من أدب عربى وما لا يمكن ترجمته، ثم قدم وصفة للحاضرين لمن يشاء كتابة رواية تترجم بسرعة وتنازل عن حقوقه فى هذه الوصفة فقال : تبدأ الرواية بفتنة طائفية بين المسلمين والأقباط، ثم يتم اختطاف فتاة تقام لها طقوس الختان، ثم يتزوج البطل البطلة ويذهبان معًا لزيارة إسرائيل تدعيمًا للسلام العالمى!!

وبهذا الحديث الساخر، وببساطة جميل عطية إبراهيم المذهلة حاز إعجاب ورضا الجمهور فتوجهت كل الأسئلة تقريبًا إليه ونحن تركناه يجيب عليها وقلت أنا له بعد الندوة، لم نكن ندرى أن معنا محمد حسنين هيكل اليوم، لكن الملاحظة الخطيرة فى الأسئلة المقدمة أنها كانت فى مجملها إدانة لمصر، أو بمعنى أدق، للدولة المصرية، والمثقفين المصريين، وبالطبع من حق كل إنسان أن يهاجم أفكار من يشاء فى أى وقت يشاء، لكنى لاحظت فى الندوة أن الهجوم كان

أحياناً لمجرد الرغة فى الهجوم، فمن الأسئلة التر
ادهشتنى جدًا سؤال لأحد السائلين - فى صيغة لوم
وإدانة - عن الحاج مدبولى أشهر بائع وموزع وناشر
كتب فى مصر، وكيف أنه لا يعرض كتب الأدباء
العرب. السؤال مدهش فهو يتعلق بموزع وبائع كتب
ليس معنا فى الندوة والسؤال غير حقيقى؛ لأن أهم م
يوفره هذا الناشر بالذات هو الكتب العربية قبل
المصرية، ونحن من زمان نذهب إليه لنجد عنده
الكتب العربية التى لا نجدها عند غيره.. ومن الأسئلة
التى أدانتنا بشدة لا أعرف لماذا هو أن أحدًا فى
مصر لم يترجم حتى الآن كتاب (الزمن الأصفر)
لديفيد جروسمان الإسرائيلى الذى تنبأ بالانتفاضة
الفلسطينية، كان هذا السؤال من شاب سورى وهو
بالطبع لم يعرف أن مجلة الكرمل سبق وقدمت هذا
الكتاب، لكنه لم يسأل نفسه لماذا يكون عدم ترجمة
الكتاب فى مصر أمرًا يستوجب اللوم؟ ولماذا لا
يترجم فى مكان آخر مثلاً[1]؟

وهكذا بدا أن هناك قصدية فى الأسئلة حتى أن
أحد الشباب من المغرب قام بإدانتنا، لأننا لا نكتب
عن الريف المصرى، نحن - الموجودين - بالذات
وبالطبع وضح له أن هناك كتابًا فى مصر غيرنا
يفعلون ذلك وبالطبع كان يعرف لكنه توصل إلى
طريقة لإدانتنا والسلام.

---

(١) تُرجم هذا الكتاب فيما بعد فى مصر واحدثت ترجمته صخبًا فى
الحياة الثقافية بين مؤيد ومعارض للترجمة عن العبرية.

أمـا أغـرب الإدانات فكانت تعليـقًا على حـديث جـميل عطيـة إبراهيم عـن روايتـه النزول إلـى البـحـر وكيف أنها تدور بين سكان المقابر فى القاهرة. لقد وقف نفس الشـاب المغربى فيمـا أذكر وقال إن ذلك أمـر مشين جدًا وإنه سـافر مرة إلى القاهرة وفوجئ بقـائد الطائرة وهم فـوق القـاهرة، يعلن لهم أنهم يطيرون الآن فوق سكان المقابر فى مصر، وطبعًا هذا اختـراع من صـاحب السـؤال لكن هكذا كـانت نبـرة الإدانة عالية، أمر محير جدًا هذا النزوع إلى الإدانة. لا أحد يعرفنا فيفصل بيننا وبين أولى الأمر، ولا أحد يريد أن يعترف أن الأفكار السلفية تسحبنا جميعًا من انوفنا إلـى الخسـران، وأن دور مصـر الآن مـهمـا عـلا صوتهـا ليس هو المؤثر الحقيقى فى هذا الخسـران إنمـا الفـاعلون هناك فى جزيرة العرب.. وغيـر جـزيرة العرب أيضًا.

فضيلة الصمت

أصـابتـى باريس بالصـمت. اكتشـفت بعـد عـودتى انى أنزعـج لأدنى صـوت يصـدر قـريبًا منى. بعـد أيام صـرت أنا مـزعـجًا لمن حـولى، فى البـيت أو الـعمل، لأنى رحت أطلب من الجـمـيع الهـدوء وعـدم ارتفـاع الصـوت أثناء الكلام، اندهش الجـمـيع لحـالـى، وأنا نفسى تساءلت ماذا جرى لى ولماذا لم أعد قادرًا على الاسـتمـاع لأية ضجـة؟ اكتشـفت أنى لم أسمع طوال أسبوع كامل أى صوت غيـر صوت المصـريين الذين

كانوا معى عندما نتحدث، واننى لم أسمع أحدًا يتحدث فى الطريق أو الفندق، ولم أستمع لموسيقى صاخبة أو هادئة تصدر من أى مكان ولا صوت للجالسين بالمقاهى ولا صوت سارينات السيارات ووجدت أن ذلك أمر غير مقبول. طلبت من زوجتى رفع صوت الراديو ومن أولادى الجرى فى البيت.

وإحداث الضجة ومن الموظفين فى العمل التحدث بصوت عال وفى وقت واحد. لابد أن أعود لحالتى الأولى وبسرعة. وهأنا عدت إليها. رجعت قادرًا على احتمال الضجيج.

الرحلة الثالثة
أدباء مصريون فى فرنسا

لم ينقطع الاتصال بين مصر وفرنسا منذ تلك اللحظة التاريخية القصيرة أثناء الحملة الفرنسية. بل وبدا فى كل وقت أنه اتصال أبدى برغم مايبدو فيه أحيانًا من أوقات ظلام، كانت نهضة محمد على بالبلاد فى جانبها الأكبر فرنسية، سواء بالبعثات التى أرسلها أو بالسان سيمونيين الذين وفدوا على مصر بأحلامهم فى البناء والعمران، أو بالجيش العظيم الذى وضع أصوله ورعاه سليمان باشا الفرنساوى! درس التاريخ يقول - بعد وفاة محمد على وإبراهيم - إن فرديناند ديلسبس قد خدع الخديو سعيد وحصل منه على امتيازات كبيرة لحفر قناة السويس، وإن القناة كانت وبالاً على مصر، ونفس التاريخ يقول إن القناة كانت ولا تزال نعمة اقتصادية ومحورًا من محاور الوطنية المصرية.

إن أكبـر النقط المظلمـة فى تاريخ العـلاقـة مع فـرنسـا هـى العـدوان الثـلاثـى (١٩٥٦م) وتمـويلها للمـفاعل الذرى الإسـرائيلى فى وقت مبكر. لكن ذلك العدوان الذى لم يمتد شهورًا سرعان ما يختفى أمام ذكـرى وأعـمـال رفـاعـة الطهطاوى وعلى مـبـارك ومصطفى كامل ومحمد عبده والأفغانى ورواد التنوير بعد ثورة ١٩١٩، طه حسين ومحمد حسين هيكل والسنهـورى باشـا وتوفـيق الحكيم إلى يوسف شاهين فى زماننا. أما إسرائيل فلم تعد عدوًا!!.

باختـصـار كـان احتـلال مـصـر إنجليـزيًا منذ الربع الأخير للقرن الماضى حتى نهاية النصف الأول من هذا القــرن، وطوال هذه الفــتــرة بالتــحــديد كــان الأثر الحضارى، المادى والمعنوى، فى مصر فرنسيًا خالصًا.

إن المثقفين المصريين منذ رفاعة الطهطاوى لم ينقلوا الروح الفرنسية فى الثقافة فقط، بل منهم من عمل على نقلها إلى الحضارة المادية أيضًا إلى البناء مـثل على باشـا مـبـارك، فـمـعظم مـيـادين القـاهرة الحديثة قد صممت على شكل ميادين باريسية، كما أن شـارعى مـحـمـد على وكلوت بك هـمـا نـمـوذجان لشـارع ريفـولى فى باريس - الريفـولى لا يزال قويًا جميلاً بديعًا بالليل والنهار بينما تحول كلوت بك إلى خرائب تامة، ومحمد على فى طريقه للانهيار - يكفى فى النهاية أن أقـول لك إن الذى بنى قناطر محمد على هم المهندسون السـان سيمـونيون الفرنسيون

وفى عهد عبدالناصر بنى مبنى الإذاعة والتليفزيون مهندسون فرنسيون أيضًا فى منطقة ماسبيرو، ذلك الاسم الفرنسى الذى لعله أكبر الأسماء الأجنبية فى عالم الآثار المصرية.

فرنسا إذًا تحتل مساحة كبيرة فى بنية العقل المصرى الحديث. من منا لا يطرب قلبه حين يسمع اسم باريس التى أسماها طه حسين ببلد الجن والملائكة!! الرحلة إلى فرنسا إذًا ليست شيئًا عاديًا. والذين سيقومون بالرحلة هذه المرة جماعة من الأدباء يزورونها لأول مرة أو لثانى مرة على احسن تقدير وعددهم أكبر من المرة السابقة.

الجميلات الأجنبيات

صفة أطلقها أحد شعراء القرن الماضى على الأعمال الأجنبية التى يتابعها القارئ الفرنسى، المقصود بها إذًا أعمال الكُتَّاب وليس الكُتَّاب أنفسهم، وهى صفة مثيرة قمينة بلفت الانتباه وإثارة الذهن، وفيها معنى الفتنة والغواية والخيانة أيضًا. فيها كل مايغرى على المعرفة، هذه الصفة أصبحت عنوانًا على برنامج ثقافى كبير تنفذه وزارة الثقافة الفرنسية (إدارة الكتاب والإدارة الفرانكو فونية) كل عام ومنذ سنوات، بالتحديد منذ عام ١٩٨٧ حيث كانت البرازيل الدولة الأولى التى ابتدأ بها البرنامج، وتبعتها ألمانيا الديمقراطية - ذلك الوقت - فالدانمارك والأرجنتين وإسبانيا والصين والبرتغال وفنلندا والمجر وأيرلندا

واليونان وأستراليا وبولونيا والمكسيك والنمسا وشيلي وإفريقيا الجنوبية وتركيا وإسرائيل!... إلخ.

وهكذا كما ترى غالبية هذه الدول ليست معروفة للقارئ الفرنسى، كما أن البرنامج قد يتكرر أكثر من مرة فى العام الواحد لأكثر من دولة، ومصر هى الدولة الثالثة والعشرون فى البرنامج الذى بدأ منذ سبع سنوات. خصص البرنامج هذا العام - ١٩٩٤ - لمصر إذاً، وتم الترتيب له منذ عامين، هكذا عرفنا ومنذ منتصف عام ١٩٩٤ وأخبار البرنامج تخرج من (المركز العلمى الفرنسى) قسم الترجمة، من القاهرة إلى الصحف. وفى هذا المركز يشرف المستشرق الكبير ريشار جاكمون على ترجمة عيون الأدب والفكر الفرنسى إلى اللغة العربية، ويختار ويدعم أيضاً ترجمة الأعمال المصرية إلى الفرنسية وحين يتم التأريخ الدقيق للعلاقات الثقافية المصرية الفرنسية سيقال إنه كما افتتح هذا القرن - العشرون - بأعمال الأثريين الفرنسيين الكبار، فإنه سينتهى بعمل ثقافى كبير للمستشرق ريشار جاكمون ألا وهو دعم ترجمة مائة كتاب فرنسى من أحدث الإصدارات فى شتى المجالات إلى اللغة العربية، تجاوزت الترجمة الستين كتابًا حتى الآن وخلال خمس سنوات، إلى جانب اختياره لبعض النصوص المصرية والعربية لترجمتها إلى الفرنسية.. فهو نفسه قد ترجم لمجيد طوبيا ونبيل نعوم وصنع الله إبراهيم، وهو الذى اختار روايتى (البلدة الأخرى) للترجمة وخصص لها منحة

للمستشرقة الجديدة كاترين تسييه توماس، وفعل نفس الشيء مع رواية بهاء طاهر (خالتي صفية والدير) وأثار اختيار الأسماء بعض اللفط بين الكُتَّاب، وهذا طبيعي جدًا في بلد مثل مصر يزخر بالمبدعين. لقد استقرت الأسماء على اثنى عشر كاتبًا هم : إدوار الخراط - إبراهيم عبدالمجيد - إبراهيم أصلان - بهاء طاهر - لطيفة الزيات - سلوى بكر - نبيل نعوم - محمد البساطي - جمال الغيطاني - أحمد عبدالمعطي حجازي - محمد عفيفي مطر - عبدالمنعم رمضان، وكان نصيب كتاب القصة والرواية هو الأعظم (تسعة كتاب أمام ثلاثه شعراء) مما يؤكد على ثقل الإبداع القصصي - هذه حقيقة لا تشين الشعر والشعراء - ولا شك أنه لا يزال في مصر أسماء من كتاب القصة، فضلاً عن الشعراء، لها أهميتها، ولها إنجازها الفائق. إذن الأدباء الذين تم اختيارهم ليس المقصود بهم الأفضل وإنما هم ممثلون لحالة الأدب العربي في مصر لا أكثر.

قبل السفر ـ يوم الوصول

في أكتوبر ١٩٩٤ وصلت القاهرة المستشرقة (آن منكوفسكي) مستشارة وزارة الثقافة الفرنسية، وهي المعروفة جدًا في الأوساط العربية الأدبية ومعها ميشيل مريام أحد المشرفين على البرنامج من قبل وزارة الثقافة الفرنسية، والتقيا بالكُتَّاب المختارين للسفر. في لقائي معهما اطلعاني على تفاصيل

البرنامج، وفعلا ذلك بالطبع مع الجميع، عرفنا أنه سيتم طبع كتيب أنيق للتعريف بنا يكتب فيه عدد من خيرة النقاد المصريين والفرنسيين، كما أننا سننتقل من باريس إلى أكثر من مدينة فرنسية.

بعد هذه اللقاءات وصل المخرج التونسى الذى سيقوم على إخراج الفيلم التسجيلى، أمضى فى مصر حوالى أسبوعين انتقل فيها مع الكُتَّاب إلى قراهم ومدنهم خارج القاهرة. اصطحبته أنا إلى الإسكندرية حيث ولدت وعشت طفولتى وصباى ومطلع شبابى والتى عنها مازلت أكتب، لم أكتب عن القاهرة بعد غير قصة قصيرة يتيمة برغم أنه قد مضى على وجودى بالقاهرة عشرون سنة، فى الإسكندرية تعرضنا لمواقف تستحق التسجيل أجملها كلها فى دهشة الجماهير من أمرنا، وغضبها أكثر من مرة حيث كنا نقوم بالتصوير فى أمكنة مفتوحة وشعبية. كانت محطة ال (سى. إن. إن) الأمريكية قبل ذلك بأسابيع قد أذاعت حفل ختان الفتاة المصرية، وكان ضمن طاقم التصوير فتى وفتاة فرنسيان، وهكذا تصور الجميع أننا جواسيس، فساقونا إلى أقسام البوليس أكثر من مرة، وفى كل مرة كان البوليس هو الذى يساعدنا على الانتهاء من التصوير!! انتهى المخرج من تصوير مايريد، وعاد إلى باريس حيث يعمل ويعيش، وقبل السفر بأسبوعين سافر المستشرق ريشار جاكمون أيضًا إلى باريس ليكون وسط الاستعدادات وفى استقبالنا بعد ذلك، كانت

الرحلة من القاهرة إلى أى مكان آخر، بالنسبة لى على الأقل، ولجيلى الذى يحب هذا الوطن إلى درجة الرغبة فى الفرار! حقيقة، وطن يحتضر بين يديك وتحبه وتعجز عن شفائه، حقيقة وطن تحبه ولا يبادلك الحب إلا بعدم الاكتراث، وطن تفر منه وتأخذه معك، تحمله على ظهرك أينما هربت، أجل ما معنى أن تكون مشهورًا فى أى مكان فى العالم بينما أنت غريب فى الوطن؟ ثم إن الشهرة فى أى مكان فى العالم ليست سهلة، العالم الآن قد تم تقسيمه إلى دول سائدة ودول بائدة، وللدول البائدة خط أحمر لا تتجاوزه، تريد أن تدخل إلى العالم الواسع، لابد لك أن تعمل وفق قوانين العالم الواسع، وأول تلك القوانين أن تتخلى عن الوطن! فهل يمكن؟ على أن الرحلة كانت سهلة؛ لأننا ذاهبون إلى باريس، بعد الاستقبال فى المطار، وفى الفندق، تسلمنا أوراقنا التى كان أبرزها الكتيب عننا نحن الكتاب.

أى زحام هذا الذى قابلناه فى الأوبرا، كانت المصادفة قد جعلت اليونسكو تقيم فى نفس الليلة امسية شعرية لمحمود درويش بمناسبة صدور ديوانه الجديد ولفوزه بجائزة اليونسكو للإبداع. انقسمت باريس بيننا وبين درويش، ذهب معظم الأخوة العرب إلى درويش، وجاءنا العدد الأكبر من الفرنسيين. اضطرت إدارة الأوبرا إلى تغيير القاعة التى خصصت من قبل لافتتاح البرنامج، كانت قاعة صغيرة يشغلها ثلاثمائة مقعد، القاعة الجديدة تسع خمسمائة مقعد.

وظل أكثر من مائتى شخص بالأبواب لم يستطيعوا الدخول فانصرفوا، وأظلمت القاعة وبدأ تشغيل الفيلم التسجيلى الذى كان المخرج التونسى (مصطفى حسناوى) قد جاء لمصر من قبل لتصويره. استغرق الفيلم نصف ساعة، وبرغم قصر الفيلم فلقد بدا واضحًا اهتمام المخرج بتأكيد الفروق الأدبية والشخصية بيننا، وهذا وحده يكفى ليحسب للفيلم.

كان ممن قابلناهم ليلة الافتتاح المفكر الكبير سيد ياسين رئيس مركز الدراسات السياسية بجريدة الأهرام، وجدت ابتسامة كبيرة على وجهه وسعادة حقيقية، انتقلت هذه السعادة إلينا.

مشهد الجمهور الغفير يخيف الكُتَّاب أمثالى نحن - كُتَّاب القصة والرواية - مساكين مع الجمهور. لقد تعودنا على الحكاية، والحكاية غالبًا تكون فى ركن صغير لعدد قليل من الأولاد أو الأحفاد أو الأصدقاء. ليس لكتاب القصة طاقة على الجمهور الواسع. ذلك أمر ينجح فيه الشعراء. معظم الأسئلة أو كلها كانت سياسية فى ذلك اليوم، تبتعد وتقترب من الإرهاب الفكرى والدينى وغير ذلك من الظواهر السلبية فى مجتمعاتنا العربية، انبرى للإجابة عن الأسئلة حجازى ومطر ولطيفة الزيات والفيطانى وبهاء طاهر، ولما جاء سؤال يتيم عن السينما أخذته أنا، لكنى بدأت أفكر بالأسئلة السابقة وأدرك الفكرة العامة السائدة عن العرب فى أوروبا اليوم، وهذا أمر يستحق الوقوف عنده بعض الوقت.

السؤال المحلق

(تسليمة نسرين) الطبيبة البنجلادشية الهاربة إلى فرنسا هى بطلة الشرق الإسلامى بلا منازع الآن. فهى المرأة التى كتبت عن ظلم المسلمين لغير المسلمين فى بلادها وعن ظلم المسلمين للمرأة المسلمة فخرجت المظاهرات تطالب برأسها بعد صدور فتوى من أحد الشيوخ باستحلال إهراق دمها. السؤال فى كل الندوات وبأكثر من صيغة وفى كل الأحوال تلمس فى السؤال تطابقًا فى الرؤية بين الإسلام والإرهاب.

وهكذا ببساطة تستطيع أن تعرف وضع العرب فى أوروبا، خاصة فى وسائل الإعلام. كل الذين أجابوا عن السؤال منا أشاروا إلى مشاكل الواقع الاجتماعية والسياسية التى أدت إلى إفراز هذه الحركات المتطرفة، وكيف أن الإسلام هو الجواد الباقى فى الساحة السياسية فركبته هذه الحركات التى لا علاقة لها بالإسلام الحقيقى، لكن السؤال دائمًا يعود بصيغة أخرى حتى اضطررت أكثر من مرة إلى أن أتحدث عن دور الغرب فى تغذية هذه الحركات المتطرفة، وقلت بالحرف الواحد إن إسرائيل مثلاً رفضت كل مشروعات السلام العادلة فكان طبيعيًا جدًا أن تظهر (حماس) كرد متطرف على العنصرية الإسرائيلية، وان الولايات المتحدة الأمريكية تأوى معظم قيادات التطرف من الجزائر، كما تأوى مفتى الجهاد عمر

عبدالرحمن، وفى لقاء مع وزير الثقافة الفرنسى جاك توبو وجه إليه بهاء طاهر سؤالاً مباشرًا عن الطريقة التى تعامل بها تسليمة نسرين كبطلة ضد التخلف الإسلامى وهل هى الطريقة الصحيحة فى مثل هذه الأمور، وهل يؤدى ذلك إلى تعضيد مفكرى الاستنارة فى بلاد الشرق أم يزعزع من مواقفهم؟ الواضح أنه يضر بهم؛ لأن موضوع تسليمة نسرين لم يكن يستحق كل هذا العداء الواضح للإسلام أو المسلمين، كان رد الوزير إن هذا الكلام فيه جانب كبير من الصحة، لكن هكذا تطور الأمر من إنقاذ كاتبة إلى ماتراه، وإن كل مثقف حقيقى يعرف سماحة الإسلام. لقد كان لقاء الوزير كله تقريبًا مكرسًا للحديث عن الفرانكوفونية وكيف أنها فى أحد جوانبها الكبيرة مواجهة للغزو الأمريكى الثقافى ـ بالمناسبة الأفلام الأمريكية تملأ السينمات الفرنسية والمسلسلات الأمريكية تملأ التليفزيون الفرنسى ـ ونحن بدورنا سألناه تدعيم الجوانب الثقافية فى مصر خاصة السينما والفنون، حيث يقوم ريشار جاكمون بتدعيم الوجود الفكرى والأدبى بمشروعه الكبير لترجمة المائة كتاب من عيون الفكر والأدب الفرنسى، والحقيقة أننا طلبنا تدعيم الوجود الفنى الفرنسى ليس من باب مواجهة الغزو الأمريكى، ولا من باب فرانكفونى، ولكن لما للثقافة الفنية الفرنسية من تقاليد وجرأة على التجديد وأثر دائم على مثقفينا وفنانينا. على أن السؤال عن التطرف والإرهاب كان ـ كما قلت ـ يعود

بصور أخرى فى ندوة عن حرية التعبير، أما أن الدول العربية تصادر حرية التعبير فهذا أمر لا مناقشة فيه، فأخبار الكتب المصادرة والأفلام الممنوعة تصل هناك قبل أى شىء آخر، وموقف مجلس الشعب المصرى من بعض دواوين الشعر معروف هناك، والقضية التى رفعها أحد المحامين للتفريق بين الدكتور نصر حامد أبوزيد وزوجته، والقضية الجديدة التى رفعها أحد المحامين فى مصر ضد فيلم المهاجر ليوسف شاهين، هذه وتلك وغيرها أمور معروفة فى الأوساط الثقافية الفرنسية، القريبة من هموم الشرق، هناك تسليم بتدخل جهاز الدولة فى كل البلاد العربية فى حرية الكاتب، رغم أننا أوضحنا بعض الحقائق المتعلقة بمصادرة الكتب فى مصر، وكيف أن جميعها حتى الآن، ومنذ عام ١٩٨٠ لم يصدر بها أى قرار إدارى أو حكم محكمة، إنما هى اجتهادات لبعض المسئولين من الأزهر الشريف، يلبيها بعض المسئولين عن النشر دون أى قرار مكتوب. عند هذه النقطة ينتقل السؤال إلى مدى ما تثيره الحركات الإسلامية المتطرفة من ضغوط على المثقف لتقييد حريته فى التعبير، وهو سؤال له وجاهته خاصة أن عددًا من المثقفين المصريين ترتعش الأقلام فى أيديهم الآن بعد مسلسل الاغتيالات فى الجزائر، وبعد العدوان الأثيم على نجيب محفوظ. لقد أوضحنا الموقف الشجاع لغالبية المثقفين المصريين أمام الإرهاب، لكن المثير فى

الأسئلة كلها أنها كانت توجه إلينا وفيها روح الإدانة
لنا كأننا المسئولون عما آلت إليه الحال. ربما هذا
الإحساس الذى تحمله الأسئلة هو ما حمل بهاء طاهر
فى إحدى الندوات إلى أن يتحدث عن حقوق الإنسان
الضائعة ليس فى البلاد العربية وحدها ولكن فى
الغرب أيضًا، إن الجنود الصرب مثلاً أضاعوا كل
مظاهر حقوق الإنسان لشعب البوسنة، وفى الندوة
نفسها التى حملت عنوان حرية التعبير، والتى
حضرها جيل كيبيل، وهو من جيل المستعربين الجدد
وله كتاب عن اغتيال السادات اسمه (النبى والفرعون)
كما حضرها جاك لاكوتير مندوب اللوموند فى مصر
فى الخمسينيات والستينيات وصاحب كتاب عنها
أيضًا فى ذلك الوقت. فى تلك الندوة قلت إنه
بالإضافة إلى دور أمريكا المؤسف فى تغذية
الحركات الإسلامية، فإنها تساهم بشكل أو بآخر فى
تقييد حرية التعبير للشعب العربى، إن لعبة التوازنات
السياسية، هى التى تجعلها تتحالف مع أى حاكم وهى
تعرف مدى إهداره حرية وحقوق شعبه إن العالم
تحكمه المصالح وليس هناك مكان واحد به حقوق
المواطنة كاملة، إنما هى تفاوت فى نسب الحقوق. كم
نظامًا ديمقراطيًا تسانده الولايات المتحدة الأمريكية؟

لم نكن نريد فى إجاباتنا أن نزايد على الجمهور
السائل، ولا أن نخفى الحقائق، أو نجمل صورة
مجتمعاتنا، بقدر ما كنا نريد أن نوضح أن بعض

النظم الغربية ليست بريئة مائة فى المائة مما يحدث فى الشرق الاستبدادى!

لقد حققت مبيعات تسليمة نسرين حوالى نصف مليون نسخة فى فرنسا وحدها، والمدهش أنها صارت سجينة للإعلام الغربى أكثر مما هى سجينة للفتوى الغبية بقتلها، ولقد صرحت أخيرًا أنها تريد أن تغير بعض آيات القرآن الكريم، وهكذا انزلقت السيدة تسليمة نسرين تحت ضغط الإعلام، فبعد أن كانت كاتبة تنادى بالمساواة بين الناس فى كل الأديان وفى الدين الواحد صارت تناطح الدين نفسه، وهذه هى المأساة وهكذا يستمر التطرف موجودًا، بنفس الدرجة التى يساعد بها الفساد السياسى والاجتماعى فى البلاد الإسلامية على وجوده، وهكذا بدا لى أنه لا نهاية لهذه الحلقة الجهنمية، الفساد السياسى فى الأرض الإسلامية ينتج التطرف.

ترجمة الأدب العربى

هناك إجماع بين المتخصصين على أن الترجمات الفرنسية للآداب العربية هى أفضل وأهم الترجمات الأوروبية. أولاً لدقتها، ثانيًا لوجود قارئ لها أكبر بكثير مما هو فى اللغات الأخرى، ولا شك أن نصيب الأدب المصرى من الترجمة الفرنسية لا بأس به حتى الآن ويزداد يومًا بعد يوم سواء من حيث عدد الكتاب أو من حيث عدد النسخ المطبوعة أو المبيعة حيث تحقق بعض الكتب أكثر من طبعة للكتاب الواحد، وهذا أمر جديد ومشجع.

لا شك أن لفوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل أثرًا
كبيرًا فى تسليط الضوء أكثر على الآداب العربية
وليس نرجسية من أى نوع القول بأن فى الرواية
العربية الآن كشوفات وإنجازات لا تقل، إن لم تتفوق
أحيانًا عن الرواية الأوروبية والعالمية عمومًا، وفى
الشعر العربى لدينا أصوات ذات حس إنسانى رائع
يمكن أن يقرأها القارئ الأوروبى بنفس المتعة التى
يقرأ بها شعراءه. المسألة أن الترجمة من العربية
عملية شاقة ومكلفة، ودور النشر فى أوروبا دور
خاصة يهمها فى النهاية أن تربح، دور النشر الأوروبية
ليست ملك الدولة، ليست كما كان يحدث فى الاتحاد
السوفيتى زمان، والحمد لله أنها ليست كذلك وإلا
لاختارت كما كان الاتحاد السوفيتى يختار!! ففى عام
١٩٩٤ هذا أصدرت دار نشر فرنسية هى (أكت سود)
كتبًا لكل من صنع الله إبراهيم، محمود درويش، نبيل
نعوم، وإبراهيم عبدالمجيد، كما نشرت دار (سوى)
لجمال الغيطانى كتابًا جديدًا، لكن هناك من يضع
بعض التحفظات على مسألة الترجمة، ويقول إن دور
النشر، أو المستشرقين عمومًا، يختارون ما يرونه
ملائمًا للفكرة السائدة فى الغرب عن الشرق المستبد
المستحل للنساء... إلخ والسؤال هو إذا كان الأمر
كذلك فلماذا لا نحاول نحن دعم عملية الترجمة
بالأموال العربية وهى كثيرة؟ لماذا لا ننظر للأمر من
زاوية أخرى أكثر حقيقية أيضًا وهى أن المستعرب
الذى يقوم بالترجمة إنما يقوم بعمل صعب حيث

يعرف سلفًا أن العائد المادى من المبيعات لن يكون مجزيًا فهو إذًا يخاطر بوقته وقوته أيضًا. هذا المستعرب الذى يضحى بالوقت والجهد يحتاج إلى دعم المنظمات الثقافية (اليونسكو العربية مثلاً) أن الترجمة إلى الفرنسية هى أوسع وأدق الترجمات للأدب العربى حتى الآن، لأن الدولة الفرنسية تدعم عادة أو فى الأغلب هذه الترجمات دعمًا ماليًا ثم إنه مع افتراض صحة وجهة النظر القائلة بأن الاختيار يتم وفقًا لمنظور الغرب إلى الشرق الا يؤدى ذلك إلى ترجمات أخرى فيما بعد تخرج عن هذا المنظور؟ أضف إلى ذلك أن قبيلة الكتاب لم تكتب أبدًا للترجمة حتى الآن. لم تكن سلوى بكر أو حنان الشيخ تعرف وهى تكتب أنها ستترجم إلى الإنجليزية أو الألمانية وكذلك محمود درويش والغيطانى وصنع الله إبراهيم والمخزنجى وغيرهم. إننى مضطر إلى هذا الكلام لأن اللغط فيه كثير. وكثيرًا ما يخلط البعض الأوراق فيبدو الكاتب كأنما كتب أعماله من أجل أن تترجم إلى لغات أخرى. إن كتابة من هذا النوع لا تترجم المشكلة أننا نحن العرب وحكوماتنا الرشيدة لا نلتفت إلى أهمية الترجمة، إن تأمين أجر المترجم فقط من قبل (اليونسكو العربية) سيشجع دور النشر الأوروبية على الدخول الواسع إلى أدبنا العربى، لكن حكوماتنا الرشيدة تتصور أن قراءة أوروبا لآدابنا ستعطيها فكرة سيئة عنا . كأن هناك فكرة طيبة . لا يفهم أحد أن قراءة رواية أو ديوان شعر يتيح الفرصة للآخر أن

يعرف (العربى) كحالة إنسانية حقيقية أكثر مما يعرفه كحالة إرهابية أو سياحية أو كحالة سياسية كما هو حادث الآن.

خارج باريس

في المدن الفرنسية كانت هناك ندوات مختلفة لنا في بوردو ومونبلييه كانت هناك أكثر من ندوة لأصلان والغيطانى، قال أصلان عنها إنها كانت بعيدة عن الأسئلة السياسية داخلة أكثر فى الأسئلة الأدبية، وحدثنى جمال الغيطانى عن أهم الأسئلة التى وجهت إليه، ومنها سؤال عن الزمن كما يفهم من أعماله التى تتأسس على التراث، وحديثه عن رؤيته للزمن فى حالة صيرورة دائمة ينتقل فى نفس اللحظة إلى الماضى، إلى التاريخ.

وسؤال كبير عن اللغة العربية الفصحى. بعد سؤال عن العامية والفصحى. وسؤال كبير عن اللغة العربية الفصحى فى تجلياتها المختلفة بين المشرق العربى والمغرب العربى، بل وبين مصر وأقطار العرب الأخرى، المغربية على الخصوص والسؤال وجيه يغرى بالبحث، وقد يوقع فى الضلال، ومن إجابة الغيطانى أشار إلى أن هناك نصًا كبيرًا مهيمنًا هو القرآن الكريم، هذا النص يتجاوز القسمة القطرية أو الجغرافية من ناحية ومن ناحية أخرى فإن محاولة إعادة ما جرى للغة اللاتينية على اللغة العربية الفصحى لن تنجح بسبب النص الأكبر الموجود من

جهة ومن ناحية أخرى فإن ما جرى للغة اللاتينية لم يكن جيدًا في كل الأحوال، وبالتأكيد كان حال الآداب والثقافة الأوروبية سيكون أفضل لو ظلت اللغة اللاتينية لغة أغلب الشعوب الأوروبية. على الأقل كان ذلك سيوفر المجهود الكبير في الترجمة الذي يحدث الآن من لغة إلى أخرى. على أى حال هذا السؤال المهم يتردد على استحياء الآن لكنه يمكن أن يتردد فيما بعد بقوة بسبب التغيرات الشديدة التي تشهدها اللغة العربية في المغرب الأقصى بالذات أو المؤثرات الأجنبية التي تتسلل إليها، وذلك يدعو العلماء والمترجمين في الوطن العربي إلى محاولة الوصول إلى نص واحد ومصطلح واحد، وأعتقد أن هذه هي القضية الغائبة عن المجامع اللغوية العربية منذ نشأتها.

إلى (أكس أن بروفانس) و (مارسيليا) سافرت سلوى بكر وبهاء طاهر ولحقت بهما في ليون، وسلوى بكر على طول الرحلة مفعمة بالحيوية والصراحة، حيوية في استقبال أسئلة الجمهور وصراحة في الإجابة إلى حد مثير، وهي الآن في أوروبا كاتبة معروفة ترجمت لها أعمال كثيرة إلى الإنجليزية والألمانية، وفي الطريق ترجمة فرنسية لروايتها (العربة الذهبية لا تصعد إلى السماء).

قبل ليون كنت ذهبت مع محمد عفيفي مطر إلى بلدة صغيرة تسمى (بلوا) إلى الغرب من باريس على

مبعدة حوالى ثلاثمائة كيلو متر حيث أقيمت لنا ندوة بإحدى المكتبات. قبل الندوة زرنا (قصر بلوا) وهو أربعة قصور ملكية بنيت فى أربعة عصور متعاقبة منذ العصر الإقطاعى (القرن الثالث عشر) حتى بداية العصور الحديثة (القرن السابع عشر) نلمس فيها أربعة طرز معمارية : الفن القوطى، ثم المزيج من الفن القوطى وبدايات عصر النهضة، ثم روح عصر النهضة ثم المرحلة الكلاسيكية التى شملت القرن السابع عشر. هذا القصر هو أكبر قصور المدينة الصغيرة التى تمتلئ بقصور الأمراء والملوك قبل الثورة الفرنسية. لقد احتل جنود الثورة الفرنسية جوانب هذا القصر وجعلوا من جناح الملكة كاترين دى ميدتش مكانًا للنوم وللخيل، ولما لاحظت أنا جدران الجناح الخشبية لا تزال سليمة النقش حدثتنى السيدة التى تشرح لنا معالم القصر بأن أحد الأمراء أدرك خطر الثورة على هذا المكان فقام بدهان هذه الجدران الخشبية ذات النقوش الدقيقة بالجص، وفى القرن التاسع عشر وفى زيارة لبلزاك الكاتب المشهور للقصر اكتشف هذه الحقيقة وهو يمر على الحوائط بالمصادفة، وقاموا بإزالة الجص لتظهر هذه النقوش البديعة.

فى (بلوا) الصغيرة هذه التى تحمل اسمها من كلمة لاتينية تعنى (الذئب) تحدث عفيفى مطر باستفاضة عن تقصير الغرب فى معرفة وفهم الشرق وعن النظرة المتعالية للغربى إلى الشرق وضرورة أن

تتغير، وتحدثت عن الإسكندرية وعن روايتى البلدة الأخرى. دائمًا كان هناك حديث عن روايتى؛ لأن الندوات كانت فى المكتبات حيث تباع الرواية وأقوم بالتوقيع على النسخ المبيعة للجمهور. كانت هذه أول مرة فى حياتى أفعل فيها ذلك كنت كثيرًا ما أرتبك لأنى أوقع لناس لم آلفهم من قبل وعلىَّ فى كل الأحوال كتابة كلمة رقيقة وهى فى أوروبا مسألة طبيعية لترويج الكتاب. على أى حال فى المرة الثالثة صار الأمر سهلاً وأذكر أنى وقعت على حوالى عشرين نسخة فى مكتبة كرونيك فى ضاحية كريتاى خارج باريس وحدها.

فى ليون لم يكن الأمر على ما يرام برغم أن ليون أقدم علاقة بالشرق من باريس وغيرها!

بدا مستقبلونا ينفذون البرنامج على مضض، كانت سلوى بكر وبهاء طاهر قد سبقانى إليها، وجدت سلوى مصابة بعد أن انزلقت على ظهرها أمام الفندق بطريقة جعلتها عاجزة عن حمل متاعها بالإضافة إلى الفندق المخيف الذى كان فى الأصل ديرًا، كان تعليق (لوك باربوليسكو) الذى صحبنى ليتحدث عنى ويترجم حديثى أن هذه مدينة دخلناها بالليل وتركناها فى الصباح الباكر فهذه رحلة غامضة وأمر صعب على النفس، وكان محقًا، لكن خفف عنا الجمهور الذى احتشد لنا والأسئلة التى وجهت لنا ولى شخصيًا عن اللغة والأسلوب فى روايتى، شخصان فقط لم

يغادرا باريس هما أحمد عبدالمعطى حجازى ومحمد البساطى، كانت لهما ندوة فى بروكسيل فى بلجيكا مع الأدباء البلجيكيين الذين يكتبون بالفرنسية ولكن منظمى المهرجان نسوا الحصول على فيزا لدخول بلجيكا لأى منهما وكان تعليق البساطى: الحمد لله أنها ألغيت لأن معلوماتى عن الأدب البلجيكى المكتوب بالفرنسية قليلة. وبهذا الكلام عن البساطى ننتقل لآخر محطاتنا، نلقى نظرة على باريس وسلوكنا فيها.

موجز عن التجوال

لقد سبق لى زيارة باريس منذ عامين بدعوة كريمة من معهد العالم العربى لندوة عن الرواية المصرية، لكن لا يعنى هذا أنى أعرف باريس، وأنى لن أندهش فى زيارتى الثانية دهشتى الأولى، لكن حالى بالتأكيد يختلف عن حال البساطى ومطر وعبدالمنعم رمضان الذين يزورونها لأول مرة. جمال الغيطانى وأحمد عبدالمعطى حجازى هما أكثرنا معرفة بباريس (أقام فيها حجازى خمسة عشر عامًا وزارها الغيطانى خمس عشرة مرة!) كان طبيعيًا أن ننقسم صباح وصولنا ثلاثة أقسام أنا وأصلان والبساطى مع الغيطانى، ومطر ورمضان مع حجازى ود. لطيفة الزيات مع د. سامية محرز، أما سلوى بكر فذهبت فى مهب الريح، لسلوى صداقات عديدة فهى لم تتوقف عن الحركة مع ضيوفها أو استقبالهم بدءًا من مترجمات أوروبيات إلى زوجات الملحقين العسكريين والسياسيين والثقافيين... إلخ.

كانت كل يوم تحمل فى يدها دعوة لنا إلى غداء أو عشاء فى بيت سفير أو ملحق من مصر أو البلاد العربية، وكلها لم نلبها لازدحام البرنامج باستثناء سهرة قصيرة فى بيت الملحق العسكرى المصرى فى جولتنا الأولى، أسلمنا، نحن - القصاصين - قيادنا إلى جمال الغيطانى الذى قطع بنا جولة كبيرة من المون برناس حيث نسكن إلى سان جيرمان وأزقته المليئة بالجاليرهات الفنية إلى سان ميشيل حيث الكتب والمكتبات إلى المون برناس مرة أخرى مخترقين حدائق اللوكسمبرج الجميلة. خرجنا فى العاشرة صباحًا من الفندق وعدنا فى الرابعة عصرًا بلا تعب مع أننا لم نركب أية مواصلة. فى باريس يتحفز جسمك للمشى والحركة، يرفض النوم يرفض التعب هواء باريس يفتح مسام الجسم، والجسم نفسه يصبح طيعًا للعقل والروح وأمام كنيسة سان جيرمان لابد أن تدخل إلى مقهى (دايجون) هذه سياحة باريسية ففى هذا المقهى كان يجلس سارتر وسيمون دى بوفوار وهمنجواى وغيرهم، وقد وضع صاحب المقهى أسماءهم على أماكنهم. هذه عادة باريسية ذكية وجميلة فى الفندق الذى نزلنا فيه أيضًا، فندق (راسباى) وضع صاحب الفندق أسماء أكثر الفنانين والأدباء الذين نزلوا بالغرف يومًا ما وإذا كان الفنان تشكيليًا تجد فى الغرفة لوحة له غالبًا أصلية يكون قد أهداها إلى الفندق. على مقاعد الكتاب المشاهير نفسها كان يجلس كتاب آخرون، كان أحدهم لا يكف

عن الحركة وهو جالس يكتب بسرعة فائقة بحيث يرعبك إذا فكرت فى الجلوس جواره أو النظر إليه ابتسمت حين رأيته لأنه ذكرنى بصورة الفنان كما كانت تقدمه أفلامنا القديمة.

برغم ازدحام البرنامج وجدنا يومًا لزيارة اللوفر، لم أزره فى زيارتى السابقة لباريس، ذهبت أنا والبساطى وعفيفى مطر. يوم واحد لا يكفى لزيارة متحف اللوفر لذلك قررنا أن نركز على جناح أو جناحين، وفى وقت واحد قررت أنا والبساطى أن نركز على فنون عصر النهضة لكن عفيفى أضاف ضرورة زيارة الجناح الإسلامى خفنا أن نقول إنه فى مصر يزخر المتحف الإسلامى بما هو أكثر من اللوفر، فعفيفى كان سيتهمنا ضاحكًا بالعمالة للغرب مع أنه يعرف أننا لم نعد ندرك مع تقدم العمر والأهوال الغرب من الشرق!. وافقنا فقط لقطع شهوة عفيفى فى الملاحاة والحوار أمضينا وقتًا ممتعًا مع رسوم عصر النهضة ونحتها كان عفيفى مطر يدور فى إعجاب متبتلاً حول تمثال (العبد ثائرًا) لمايكل انجلو، ويتأمل التمثال من أعلى ومن أسفل، والبساطى يتأمل عفيفى فى دهشة ويبتسم. الحقيقة أن تمثال انجلو فائق الروعة يكاد ينطق من مكانه تحررًا ويكاد يصرخ صرخة الحرية لكن البساطى يحب التصوير أكثر مما يحب النحت ولا يصدق أن مطر يحب النحت! أمام الموناليزا كانت وقفتنا الكبرى، مثل كل زوار اللوفر. ما الماناليزا؟ سؤال حلّق فوقى وفى

جنبات روحى وأنا أقف متبتلاً أمامها طفل صغير يتيم يغتصب نظرة حب منك! من الطفل الصغير اليتيم؟ هو أنا، أنا المشاهد.. الموناليزا تجعلك تشعر بفداحة الظلم الواقع على الإنسان فى العالم، باغتراب الإنسان ووحدته وعزلته. يا للبساطة المتناهية يا للسخرية العجيبة ما معنى أن توجد فى هذا الكون الفسيح، وتشعر بعد كل هذه المعارك الدامية للإنسان بالعدم؟ هذا ما أشاعته فى روحى الموناليزا وليس جمالها ولا ابتسامتها التى تدور معك ولا كونها كانت حبيبة ليوناردو دافنشى، ولا كونها لوحة لم تكتمل، ولا كون دافنشى كان مخترعًا أكثر منه رسامًا. أمام أية لوحة تجد تفسيرًا أمام الجورنيكا أشهر لوحات بيكاسو ـ موجودة فى إسبانيا ـ تجد تفسيرًا. هذه الصرخة التى تشمل كل شىء. هذا الفزع من الفاشية. لكن الموناليزا تحملك إلى الأثير، إلى السديم الأبيض، إلى اللحظة التى سبقت خلق الإنسان، إلى البرزخ بين الجنة والأرض. يا للموناليزا.

ولم يكن بالطبع يمكن لنا مفارقة اللوفر دون تحقيق رغبة عفيفى فى مشاهدة القسم الإسلامى الذى من فرط تعبنا ضللنا طريقنا إليه. لم يفلح اتباعنا للإرشادات ولم تفلح أسئلتنا لموظفى اللوفر بدا أن هناك رغبة قدرية لتعكير صفو شاعرنا الكبير فى النهاية اضطررنا للخروج، وقبل آخر باب سيفضى بنا إلى الخارج وجدنا ما يشير إلى القسم الإسلامى مباشرة وبسهولة. ضحكنا ودخلنا، لكن عفيفى لم

يعجب بمعروضات القسم رآها فقيرة وليست كما توقع.

ولا أحب أن أنهى هذا الحديث دون الإشارة إلى روح الدعابة التى شملت بعضنا فى لقائه مع الجمهور، شاركنى فى ذلك الشاعر عبدالمنعم رمضان وكان ذلك مفاجأة لنا وفى إحدى الندوات المهمة جدًا، ندوة حرية التعبير التى أشرت إليها من قبل، وكان قد حضرها السفير المصرى والملحق الثقافى المصرى وعدد كبير من الجالية العربية لمحت مخرجه سينمائية مصرية تسجيلية معروفة بصلاتها بإسرائيل تعيش فى باريس منذ سنوات وليس لها من عمل منذ سنوات غير تشويه السلطة المصرية فى علاقتها بالمثقفين. فى هذه الندوة التى شاركتنى فيها الدكتورة لطيفة الزيات وبهاء طاهر تعمدت تخفيف التوتر القائم وقلت إننا فى مصر لا نتأخر عن إصدار أى بيان لمناصرة أى مثقف يتم الاعتداء عليه فى أى مكان. إننا نصدر البيانات إلى درجة أن هناك عددًا من أصدقائنا صار يتولى مهمة إصدار البيانات وتوقيعها فور الاتصال بالتليفون وقلت إننى فى شبابى كنت أخرج فى كل مظاهرة ضد أمريكا وتوقفت أخيرًا لأن أمريكا انتصرت على الدنيا كلها ويخيل لى أن خروجى فى المظاهرات كان سبب هذا الانتصار! وتحدث بهاء طاهر عن رقابة الإعلام على المسلسلات التليفزيونية لأنها تصدر وتوزع إلى دول بالخليج لديها محاذير كثيرة تصل إلى حد منع تصوير

رجل وزوجته فى غرفة النوم فقلت أنا إنه يمكن تصوير رجل وزوجته فى غرفة النوم بشرط أن يكون معهما محرما باختصار خرجنا بالدعابة من الندوة الصعبة، ولم نكذب ولم نغازل المستمعين.. لكن لاحظنا أن الترجمة لا تستطيع نقل روح الدعابة المصرية. لم يشعر بها إلا من زاروا مصر أو يعرفون شيئًا من العربية مثل جاك لاكوتير الذى كان تعليقه أنه من زمان لم يزر مصر، وأنه يشعر تلك الليلة كما لو كان يجلس بين أصدقائه فى مقهى مصرى حميم بالطبع هناك مواقف وفصول طريفة لا تهم القارئ كثيرًا لكن لاحظت أن وجوهًا بعينها من الجمهور كانت تتابعنا فى كل ندواتنا، وكانت تحيطنا بالألفة والمحبة كانت فى معظمها وجوه نساء مصريات وعربيات اشتاقت للوجوه المصرية وللروح المصرية وكان لافتًا للنظر أن معظم الكتاب العرب المقيمين فى باريس لم يهتموا كثيرًا بالاتصال بنا أو متابعتنا إلا فى الليلة الأخيرة حين أقام معهد العالم العربى ندوة كبيرة لنا حضرها عدد كبير من الكتاب والشعراء منهم محمود درويش وهدى بركات وكاظم جهاد وآخرون. لقد أدار هذه الندوة الناقد المعروف فاروق مردم بك وكانت الندوة لمدة ساعتين احتجّت عليهما بعض الحاضرات من الجمهور وطالبت أن تمتد الندوة لأربع ساعات لكن ذلك لم يكن ممكنًا بعدها أدخلنا المعهد بهمة بهجت بدر الدين عردوكى إلى جو عربى عريق بعشاء غزير امتد إلى منتصف الليل.

بعد أن بدا أننا ابتعدنا كثيرًا عن الأجواء العربية من فرط كثافة البرنامج المعد لنا ومن فرط كثافة الوجود اليهودى الفرنسى فى الندوات، خاصة اليهود ذوى الأصول العربية، المصرية على وجه الخصوص الذين كثيرًا ما تحدث بعضهم عن الحنين إلى مصر لكنهم بوجه عام لم يتحدثوا عن إسرائيل، إذا ببرنامج إذاعى فرنسى موجه عنوانه (شالوم) يحاول الاتصال بنا لكن لا أحد وافق على الحديث فيه. مذيعة فى برنامج (بانوراما فرنسية) الإذاعى سألتنى صراحة بعد ما أثنت على روايتى (البلدة الأخرى) ما إذا كنت أحب أن أزور إسرائيل؟ قلت: لا. أذاعت البرنامج وتحدثت حديثًا جميلاً عن الرواية وعنى ثم قالت: لكنه مع الأسف لا يريد زيارة إسرائيل... كانت ليلتنا الأخيرة عربية صرفًا إذًا. كما كانت ليلتنا الأولى فرنسية تمامًا، وهكذا حلت فينا المسرة فى الذهاب والإياب.

الرحلة الرابعة
أسئلة المغرب

في يناير ١٩٩٥ دعيت لحضور المؤتمر التاسع عشر لاتحاد الكُتَّاب والأدباء العرب الذى تقرر انعقاده فى المغرب أتتنى الدعوة الكريمة مع عدد من زملائى الكتاب المصريين، قلت أخيرًا جاءت المغرب الجميلة التى طال اشتياقى إليها، وكنت أظنها أبعد من المنى، كنت عائدًا لتوى من باريس بعد حضور برنامج (الجميلات الأجنبيات) الذى خصص نهاية العام الماضى للأدب المصرى، وكنت عائدًا ممتلئًا بالزهو والثقة بالنفس، وكان السؤال الأول: ماذا يمكن أن أرى فى المغرب يسعدنى أكثر مما رأيت فى فرنسا.. وكانت الإجابة الأولى هي (الألفة) فهناك لغة مشتركة في حالة المغرب تفتح لي الطريق فى أى وقت.. ولكن هذا السؤال سرعان ما اختفى. ليس مهمًا لى أن تكون المغرب أجمل من فرنسا، أو أكثر إبهارًا لروحى، لكن المهم هو أن أرى المغرب بعرامة الرغبة نفسها التى

رأيت بها فرنسا، أن أصل إلى المغرب بالشوق القديم المعطر الجارف، أن أترك مشاعرى الأولى تتحرك.. غابت النشوة التى خلفتها زيارتى لباريس وفرنسا، وتفتحت أبواب الروح لانتشاء جديد عصرى أيضًا، وقديم، عربى، أجنبى وبربرى، وفى كل الأحوال، غرائبى، احتاج منى هذا إلى وقت من الصمت، وعدم الكتابة، لأنه أثار من الأسئلة أكثر مما أثار من الاجابات، وهى أسئلة اربكتنى لبعض الوقت، وغمضت على أكثر الوقت، وليس عندى إجابات عليها كلها، وأود، فقط الآن أن أنقل إليك بعضًا من هذه الأسئلة، وبعضًا من الإجابات، ولك أن ترى الإجابات مقنعة أو غير مقنعة، بل لك أن ترفض الأسئلة من الأساس، لكن لابد لك أن تكون على ثقة من أن ما أنقله إليك من مشاعر، صادق حتى النهاية.

المدينة البيضاء

هى الدار البيضاء، كازابلانكا بالإسبانية، أو كازا بالإيجاز المغربى، واسمها القديم، البربرى (الأنفا) وهو اسم يطلق الآن على أكثر أحيائها ثراء، أقول ثراء، ولا أقول جمالاً، لأنك قد تجد الجمال أيضًا فى الأحياء الشعبية والأسواق، فلكل جماله، وفى المغرب يتوزع الجمال، الذى تبهرك ظواهره الأولى، الأشجار نظافة الشوارع، اختفاء رجل الشرطة، هو موجود طبعًا لكن بشكل سرى أو بشكل لا يبدو فيه قذى فى العيون، اختفاء رجل المرور، وبالتالى اختفاء أمراض

الصدر عند طائفة الجنود والضباط المساكين الذين يقفون في إشارات المرور، نظافة السيارات، ندرة المشاه إلا فى أماكن التجمعات الشعبية والأسواق مثل ساحة مراكش، حالة من الصمت تجلل المدينة، والمدينة بيضاء كلها، تقع على المحيط الأطلسى الذى يمتد أمامها فسيحًا، ومن ثم يتسع الفضاء فوقها وحولها، يتسع الصمت المشبع بالجلال، والدار البيضاء ليست مدينة صغيرة، إنها أكبر المدن الإفريقية بعد القاهرة من ناحية تعداد السكان والمساحة أيضًا، وهى المدينة الصناعية الأولى فى المغرب، لكنك لا تشعر بأية درجة من درجات التلوث فى الفضاء، حتى فى أكثر الأماكن ازدحامًا، أعنى الأسواق.

لقد نزلنا فى فندق بمنطقة (عين دياب) على المحيط مباشرة، والمنطقة أرستقراطية من الطراز الأول، علّق عليها أحد الموجودين بأنها أشبه ببيفرلى فى هوليوود، لم أندهش لأنى لم يسبق رؤية بيفرلى هيلز. ادهشنى أنه لا توجد على المحيط العمارات العالية التى توجد على كورنيش الإسكندرية أو نيل القاهرة، لذلك يطير الهواء حرًا وينسكب نظيفًا يغسل بيوت المدينة كلها، لذلك ينعم البعيد بالهواء نفسه الذى ينعم به القريب من المحيط. قسمة عادلة لما خلقه الله للناس جميعًا، الطريق، وحرم المحيط، مسافة عريضة كبيرة، وبعدها لا ترتفع البيوت عن دور واحد أو دورين أو ثلاثة على الأكثر.

قال لى صديقى الذى رافقنى فى معظم جولاتى بالمدينة: لقد نجح أهل الدار البيضاء فى الحفاظ على ما تركه الاستعمار الفرنسى، من نظافة ونظام.

قلت له: قضينا على الاستعمار، نحن وهم لكننا بعد أن قضينا على الاستعمار وطردنا جيوشه من بلادنا قضينا أيضًا على أى مظهر جميل خلفه، انظر إلى القاهرة إبان الاحتلال الإنجليزى والقاهرة الآن، أو انظر إلى الإسكندرية التى كانت عروس البحر المتوسط، صارت مدينة لا تطاق.

قال صديقى: إنه النظام العسكرى، النظم العسكرية مثل الرعى الجائر لا تبقى على الخضرة..

كنت أعرف أننا نظلم كثيرًا ثورة يوليو، ولما قلت: لا بد أن الحرب التى شنت علينا منذ الثورة، من قبل الدوائر الاستعمارية، هى سبب هذا الرعى الجائر.

قال صديقى سعيد الكفراوى وماذا تقول عن العشرين سنة التى مضت بعد حرب أكتوبر، عشرين سنة من السلام خربت فيها الزمم والنفوس وقام فيها الأغنياء، كدت أكتب الأغبياء، الجدد بتدمير كل مظهر جميل.

قلت: هؤلاء ليسوا ثوار يوليو.

قال: هم الذين أتوا بهم.

قلت: على العكس. هؤلاء الذين اغتالوا الثورة، أشاح بيده وقال: هه (حتكابر خلينا نمشى). ومشينا.

كنا فى الطريق إلى جامع الحسن الثانى، المسافة بين الجامع وبين الفندق تستغرق أكثر من الساعة مشيًا، وكنا نمشيها بلا أى تعب على كورنيش المحيط، ولم أجد تفسيرًا لهذه القدرة على المشى بلا تعب إلا نقاء الجو وكثرة الأوكسجين، أى قلة التلوث أو انعدامه وفى كل مرة أصل فيها إلى الجامع مرتاحًا أشعر بصحة كلام صديقى، إلى حد كبير واسكت.

الجامع الكبير

هو أكبر جوامع المسلمين الآن، ومما يبهرك هو أنه تم بأيدى الصناع المغاربة، ويقال إن المهندس الفرنسى الذى قام بتصميم الجامع وفنائه الداخلى والخارجى، يقال إنه قد نظر فى جميع تصميمات الجوامع الشهيرة فى العالم الإسلامى، من جامع السلطان حسن فى مصر حتى أيا صوفيا بتركيا ليأتى بمشهد مختلف وقد كان، ففى مسجد الحسن الثانى اجتمعت الحرف التقليدية مع القدرات الهائلة التى تقدمها التكنولوجيا الحديثة لنظريات البناء، ولم اندهش حين عرفت أن هذا المسجد الكبير قد تكلف مليار دولار، أو مليارين فى بعض الأقوال، وإن كنت لا أصدق هذا الرقم، والأقرب أن يقال مليار فرنك فرنسى أو حتى مليارين ولم يضليقني أن الشعب المغربى كله، بجميع طوائفه، قد ساهم فى بناء المسجد سواء كان ذلك قسرًا فى معظم الأحوال كما يقال، أو طواعيه ففي النهاية نحن أمام جامع فائق

الروعة المعمارية، ومكان عبادة، وأثر سيبقى حاملاً اسم الملك الحسن وفى الوقت نفسه معلمًا، لعله أهم المعالم، فى الدار البيضاء. فى هذه المرة لم أسأل صديقى عن دلالة هذ البذخ فى بناء المسجد، ولا عن الطريقة التى تم بها توفير الأموال، لأنه ببساطة شديدة، لم يقل لنا أحد حتى الآن إنه لم في يكن بناء الأهرام شىء من الإجبار، على جدار المسجد من الخارج لوحه رخامية تعلن أنه تم بأيدى مغربية كنوع من الفخر، وهو فخر بلا شك، وبالخارج والداخل معًا لوحة رخامية ضخمة عليها نسب الملك الحسن الثانى الذى يعود به إلى الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما، والسؤال الذى قفز إلى ذهنى هو محاولة بعض الملوك أو الرؤساء وصل نسبهم إلى آل البيت، بالتأكيد لا يشك أحد فى نسب الملك الحسن الثانى، ولا نسب الملك حسين ملك الأردن أيضًا، لكن لماذا حاول الملك فاروق عمل ذلك فى مصر من قبل؟ ولماذا فعله صدام حسين فى العراق رسميًا؟ إن السحر التاريخى، والقيمة الدينية الجاذبة لأهل بيت الرسول شىء له أثره الأكيد فى نفوس الشعب العربى، ولكن بشرط أن يكون حقيقيًا كما هو فى المغرب والأردن، لعل ذلك يفسر حب غالبية الشعب للملك، فى المغرب أو الأردن، ولعل ما يفسر هذا الحب أكثر هو نجاح الملوك فى النأى بشعوبهم عن المغامرات السياسية والعسكرية. أليس مدهشًا ان يكون دخل الفرد فى المغرب أعلى من دخل الفرد فى مصر، بل

أليس مدهشًا أن يكون دخل الفرد فى الأردن أعلى من دخله فى مصر، لن أحدثك عن المملكة العربية السعودية؛ لأنك تعرف مصادر الدخل هناك وقلة عدد السكان، ولكن لعلك فهمت ما أخفيه عنك، أقصد لماذا نجح الملوك في جعل بلادهم نظيفة ومظاهر الفقر فيها أقل؟ لقد شاهدت فى طريقى إلى المسجد منطقة كبيرة على شاطئ المحيط مباشرة من البيوت الفقيرة محاطة بسور يحجبها تمامًا مثل السور الذى يحجب منطقة بولاق الدكرور عندنا، لكن لا أحد فكر فى طرد هؤلاء الفقراء من على الشاطئ الجميل، ولا نقلهم بعيدًا عن المدينة، تركوا فى المكان الجميل، لم يفكر أحد فى بناء عمارات وفيلات استثمارية مكانهم! على الأقل حتى زيارتى هذه.

قال لى صديق آخر إن الملوك كانوا دائمًا على علاقة وثيقة بالغرب، الذى جاهد ليحتفظ لبلادهم بنظافتها ومستوى معيشة أفضل حتى تعرف النظم الجمهورية التى ركبت حصان الثورية إلى أين انتهت، ويزداد فيها الندم!. الغرب الذى حافظ على هذه النظم هو نفسه الذى استدرج عبدالناصر إلى حرب ١٩٦٧ وهو الذى استدرج صدام حسين إلى فخ الكويت، وهو الذى ترك الحبل على الغارب للعقيد معمر القذافى فعاد الليبيون إلى الحياة على لبن الماعز والغنم، ووجدت نفسى أسأله إلى هذا الحد كان تخطيط الغرب؟

ونحن ألم نخطئ فى شيء قط؟ لم يرد صديقى، وترك السؤال معلقًا، وتركنى أمشى فى الشوارع الشعبية أتفرج على المنتجات الزراعية المغربية فأجدها أفضل وأشهى من منتجاتنا نحن أهل الزراعة وأهل النيل، في الطريق إلى مراكش حوالي خمسمائة كيلو متر، لم تنقطع الخضرة لكن لذلك حديث سيتأخر قليلاً، ونحن نقتحم الصحراء ونتحدث عن التصحر الذى يهاجم وادى النيل، لا تقل لى إن المغرب بلد قليل السكان. حوالى ثلاثين مليونًا لأنى سأقول لك إن المغرب رقعة أرض صغيرة، وثرواتها أقل من ثروات مصر، لا تقل لى إن المغرب يقع على البحر المتوسط والمحيط لأنى سأقول لك إن مصر تقع على البحر المتوسط والبحر الأحمر وبها خمس بحيرات كبيرة نجتهد طوال الوقت فى ردمها وتخريبها دون خوف من الله الذى خلق من الماء كل شيء حى، لقد وجدت وجودى فى المسجد الكبير فرصة للصلاة والدعاء على المفسدين فى الأرض. والدعاء للصالحين من أبناء الوطن، هذا هو ما بقى لى.. لم أعد قادرًا على مقاومة المفسدين، ولا العمل مع الصالحين، يخيل لى أنى كلما اشتركت فى مقاومة شيء ازداد شراسة ونجاحًا من فرط ما قاومنا وما حدث من كوارث. اذكر أننى أثناء حرب الخليج جاءنى أحد الشباب وقال لى إن الطلاب فى الجامعة يقومون بمظاهرة ضخمة لكن قوات الأمن تمنعهم من الخروج إلى الشارع. سألته ماذا يريد منى قال أن أنهض

لأشـــــارك مـع الطـلاب، هـذا واجـب علـى الأدبـاء والفنانـين. ابتـسـمت وقلت له الحـقـيـقـة المـرة إننـى لا اسـتطيع أن أفـعل مـا يـريـد لأنى ولطوال ربع قـرن اشـارك فى كل مظاهرة ضـد الأعـمـال الأمـريكيـة أى ضـد أمـريكا، وكـانت النتـيـجـة فـى النهـاية أن أمـريكا أصـبـحت القـوة الأولـى فـى العـالم، قلت له ربمـا لو امـتنعت أنـا بالـذات عن الـخـروج فـى مظاهرة ضـد أمريكا انهزمت أمريكا وتقهقرت وظل الشاب ينظر لىَّ مبهوتًا ثم ضحك مع الضاحكين ممن كانوا يجلسون معى. قلت له بعد ذلك: أنا الآن من حزب التوقيع على البيانات، إننى أساهم فى التوقيع على أى بيان ضد الباطل ومع الحق، ويستطيع أى شخص أن يحرر بيانًا من هـذا النوع أن يضـع اسـمـى دون أن يسـتـشـيـرنى، وهذا يحـدث كـثـيـرًا، على أنى لا أريد أيها القـارئ أن أصـيبك بالسـأم الذى أصـاب جيلـى. دعنا مع دهشـة الأسئلة المغربية.

الجامعة. ترمومتر المستقبل

أجل. لو أن لدى أية دولة من الدول، أجهزة قياس رأى دقيقة تستطيع دراسة آراء طلاب الجامعة، لعرفنا شكل المـجـتـمـع فـى المـسـتـقـبل أو عـرفـنـا الكثـيـر عن توجهاته. طلاب الجـامـعـة هم مثقفو الطبقـة الوسطى وصناع الرأى العـام فى المسـتـقـبل وقـادته، خـصـوصًا فى دول تتسع فيـهـا مـسـاحـة العلم والمـتـعلمين مـثل مصر والجزائر والمغرب وسوريا والعراق وتونس.

وفى كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك فى الدار البيضاء كانت ندوات المؤتمر التى شغلت ثلاثة أيام فى الصباح والمساء حضرت معظمها، لم يشغلنى كثافة الحضور الطلابى فالطلاب عادة ما يأتون برغبة أساتذتهم، أو حبًا، فى الاستطلاع خاصة أن المتحدثين فى الندوات من أكثر من عشر دول عربية، ولقد استمتعت واستفدت كثيرًا أنا شخصيًا من الأبحاث التى ألقيت فى المؤتمر خاصة أبحاث د. محمد برادة وعبدالفتاح كليطو وبنعيس بوحمالة ومحمد لطفى اليوسفى . الثلاثة الأول من المغرب والأخير من تونس، وتستطيع أن تضم لهم سعيد يقطين وحميد الحمدانى الذى أسعدنى الحظ بسماعهما أيضًا، وطراد الكبيسى من العراق - من زمان لم نسمع شيئًا من العراق لذلك جاء صوت طراد محملاً بالجدة النقدية باعثًا على الحنين إلى العراق وأصدقائى هناك - ولن أستطرد فى الحديث عن المساهمات النقدية للضيوف لأنى كما قلت لك لن أتحدث عن المؤتمر كثيرًا هذا برغم أن حديثى عن الأبحاث والنقاد سقط سهوًا من المطبعة فى المقال الذى نشرته من قبل عن المؤتمر فى مصر فى جريدة أخبار الأدب لكن سعادتى كانت غامرة بالتعرف على (عبدالرحمن الأهدل) من اليمن، كل يمنى يحمل خصائص الأمة اليمنية، فى الوداعة والذكاء، وعبدالرحمن الأهدل لخص لى ذلك بامتياز، لم يسعدنى الحظ بسماع أحمد اليبورى من المغرب ولا

صديقى عبدالقادر الشاوى الذى لا أعرف لماذا كان فاروق عبدالقادر مصرًا أن يسألنى أمامه. اقصد أمام عبدالقادر. ما إذا كنت أعرفه أم لا .. ولم يسعدنى الحظ بسماع بقية المشاركين فى المؤتمر لكن قراءة عامة للأبحاث وعناوينها تكفى للاطلاع على مدى الجدية لكن الجدية الحقيقية كانت فى جماهير الطلاب التى حضرت وحرصت على حضور الندوات باستثناء يوم الجمعة.. يوم الجمعة؟! لماذا؟ لأنه يوم عمل فى المغرب، التى لا تزال تتعطل فى الآحاد،، مثلنا فى مصر قبل الثورة عام ١٩٥٢ .. وأن يقاطع الطلاب المحاضرات يوم الجمعة، ويكون حضورهم نادرًا أمر يستحق التأمل. والإجابة بسيطة هى أن التيار الأصولى يسرى ببطء بين طلاب الجامعة. كان يمكن لهم الحضور للندوات بعد الزوال، لكنهم لا يفعلون ذلك أيضًا يو الجمعة، التيار الأصولى يسرى حثيثًا فى الحقيقة. لقد ألقيت كلمتى، مشاركتى المتواضعة فى الأبحاث فى يوم كان فيه الدكتور محمد برادة وبنعيس بوحمالة وسعيد السريحى من السعودية. لقد كان يومًا نقديًا حافلاً وعامرًا، كان اليوم التالى مباشرة، وكان يوم الجمعة، وتأخرت الندوة إلى ما بعد الزوال، إلى المساء حتى صار الحضور كبيرًا، وألغيت الندوة التالية لها. وكان من نتيجة هذه الندوة أننى أمضيت اليوم الثالث كله، ومعظم الأيام بعد ذلك بين الطلاب. فى الجامعة أو فى الفندق أو فى الأمسيات الشعرية لا يكفون عن

توجيه الأسئلة لى من كل نوع. أول ما لاحظته هو ارتفاع مستوى الأسئلة، وأن اللغة الفرنسية التى يجيدها جميع الطلاب تفتح لهم آفاقًا كبيرة من المعرفة الإنسانية، وتساءلت فى نفسى لماذا حقًا ألغيت اللغة الإنجليزية من المدارس الابتدائية عندنا؟ لماذا اعتبرناها لغة استعمارية فأصبحنا حتى ندرسها بلا اهتمام؟ إلم يكن ذلك خطأ كبيرا، الآن هناك محاولة لاستدراك الأمر ستعود اللغة الإنجليزية إلى المدارس الابتدائية، وسيحتاج الأمر إلى وقت حتى يكون لدينا كوادر التدريس المناسبة والحقيقية. المهم أن تعود. لقد أهملنا اللغة الإنجليزية دفاعًا عن اللغة العربية لكن نظمنا التعليمية أضاعت اللغتين معًا. إن اللغة الفرنسية فى المغرب تستشرى وتفتئت على العربية هذا حقيقى، لكن أرجو الا يكون الحل إلغاء الفرنسية بل التقدم فى العربية، والمغرب يحتاج إلى ذلك حقيقة، لم يفتتنى إذًا معرفة الطلاب بالفرنسية ولم أكره ذلك لكن الذى اثارنى هو أن كثيرًا من الأسئلة كانت عن الحل الإسلامى لمشاكلنا العربية، الا يكون أفضل من الحلول المطروحة أو التى سبق طرحها فى العالم العربى؟! قطاع كبير من الطلاب يسأل فى ذلك برومانسية حقيقية بجموح الشباب وعفويته وبلا عنف، لذلك اندهشت كثيرًا من العنف فى الحوار الذى قوبلت به مداخلة محمد لطفى اليوسفى (فتنة المتخيل وسلطان القدامة) لكنه كشف لى عن الوجه الآخر المستتر للظاهرة، إن التيار

الأصولى كامن يكتسب انصارًا ولا يتأخر فى الأعلان عن نفسه إذا دعت الحاجة، ومداخلة اليوسفى تناصر المحرم والإباحى والمتخيل. والسؤال الآن هل ينجح التيار الأصولى شيئًا فشيئًا فى احتلال المشهد المغربى، هل يمكن أن نفقد المغرب فتكون الجزائر ونستمع إلى محمد الأشعرى الشاعر المغربى ورئيس اتحاد الكُتَّاب فى بلد آخر يلقى بكلمة موجهة بليغة عن الحال التى وصلت إليها أوطاننا وعن مأساة الكتاب فى الجزائر، أقصد المغرب!! لقد كانت كلمة الأشعرى من أبلغ ما قيل فى الافتتاح، بالضبط كما كانت مداخلة محمد برادة وعبد الفتاح كليطو، فضلاً عن الحضور الجميل لمحمد برادة كشخص،. كفنان، حضور فيه دماثة المدرك للروح الإنسانى فلا يبدو أبدًا من الحديث مع برادة، أنه يعرف حديث الانتقام أو الغضب، حضور فيه عمق وصدق. لمحمد برادة فى مصر مساحة كبيرة من الحب وأنا واحد من سكان هذه المساحة، أعود لأقول ما الذى يجعل التيار الأصولى يشتعل بطول الوطن العربى. ولماذا هو أكثر فى نظم الحكم الجمهورية؟ لاحظ أن المغرب لم تصل إلى أن تكون الجزائر أو مصر أو سوريا من هذه الزاوية، يمكن أن تقول لى إن النظم الملكية تستخدم القمع من اول مواجهة، وأوافقك وأسأل وماذا تستخدم النظم الجمهورية؟ إذًا لا مناص عن الاعتراف باختلاف ميزان العدل أكثر فى معظم النظم الجمهورية أكثر مما هو فى النظم الملكية

العربية. إن كل ما هو مطروح من وسائل لمقاومة هذا المد الأصولى، بما فيها الحوار والنداء بإطلاق حرية تكوين الأحزاب الدينية يفيد فى تقليص هذه الظاهرة كما يفيد العدل وإشاعة العدل أو العمل من أجل تحقيق أقصى درجاته، والعدل لا يعنى المساواة أمام القضاء فقط ولكن يعنى التمية وإيجاد فرص عمل ورعاية صحية حقيقية لدافعى الضرائب ورعاية تعليمية... إلخ ما يتمتع به دافعوا الضرائب فى النظم الديمقراطية..

سؤال القراءة/ الكتابة

لعل هذا من أهم الأسئلة، فى المغرب حركة قراءة، لا تسألنى هل يقرأ الرجل العادى لأن الإجابة هى إن الرجل العادى لا يقرأ فى الوطن العربى كله، المواطن العادى إما أمى وإما جالس أمام التليفزيون. أنا أتحدث عن فئات المتعلمين.

وما دام فى المغرب حركة قراءة فهناك أيضًا حركة كتابة. حالة كتابة خصبة ومتطورة ونحن منذ وقت طويل نعرف أسماء مغربية مهمة فى سماء الفكر العربى. محمد عابد الجابرى وعبد الله العروى مثلاً. وفى سماء النقد العربى، محمد برادة وعبد الفتاح كليطو مثلاً ومنذ الستينيات وصلتنا كتابات قصصية لمحمد زفزاف. وتتوالى الأسماء فى المغرب، وعلينا، منها أسماء لنقاد ذكرتهم فيما مضى من حديث وأسماء لنقاد لم أذكرهم مثل عبد الحميد عقار الذى

كان له حضور شخصى تنظيمى جميل فى المؤتمر ومبدعين لم أذكرهم مثل ميلودى شفموم وسالم حميش. للأول رواية جميلة ليست معروفة لدينا هى (عين فرس) وللثانى رواية جمية ومعروفة لدينا هى (مجنون الحكم) وللاثنين أعمال أخرى بديعة تضم لأعمال زفزاف وبرادة. والحقيقة أن قائمة المبدعين فى المغرب كبيرة ولا بد أن أسماء ستسقط منى، واكتفى أن أضيف أسماء شعيب حليفى ومحمد الشرقى فى القصة والرواية، أما قائمة الشعراء فهى أيضًا طويلة، ابتداء من محمد بنيس حتى عبد الدين حمروش. والسؤال هو هل يمكن أن تتصدر المغرب المشهد الفكرى والأدبى فى حياتنا العربية؟

الملاحظ أن هناك أيضًا حركة ترجمة نشطة، وأننا هنا فى مصر نقرأ بشكل جيد ما تفرزه المطابع المغربية - يعرف ذلك أصحاب دور النشر المغربية فى معرض الكتاب السنوى بالقاهرة. لا بد - والذى يلاحظ مجلاتنا المصرية يجد هذا الحضور الكثيف، نقديًا وفكريًا بالذات فى مجلة كبيرة قيادية، مثل فصول. وفى حياتنا النقدية المصرية كثيرًا ما نسمع حديثًا عن نوع (كتابته متأثرة بالكتابات المغربية). عندما يدور الكلام حول مقالة نقدية صعبة لأحد النقاد الشباب. والمهم هنا هذا التأثر ولا تقف كثيرًا عند الصعوبة أو السهولة والحقيقة أن تأثير الحركة المغربية الفكرية والنقدية أو على الأقل تداخلها، فى ثقافتنا المعاصرة أمر ظاهر ولا يمكن إنكاره، يختلف

الأمر كثيرًا فى تأثير الإبداع، الإبداع المغربى محل تقدير كبير فى مصر، وهو مقروء، لكنه لا يؤثر نفس تأثير الفكر والنقد المغربى، ليس لأنه أقل من الإبداع المصرى، ولكن لأن الإبداع المصرى أكثر اتساعًا، وهذه المسألة لا تخص المغرب فقط، بل تخص كل الدول العربية فأنت تستطيع أن تجد كاتبًا أو اثنين أو ثلاثة أو خمسة من الطراز الأول فى كتابة القصة مثلا فى بلد ما لكنك فى مصر تجد عشرة أو أكثر. طبعًا التعداد وكم المتعلمين يلعب دورًا أساسيًا هنا، لكن النتيجة التى تصلك بقوة أن الهوامش، تلعب دورًا جاذبًا للمركز فى كثير من الأحيان، أو على الأقل هناك نوع من الاكتساب الثقافى بين الاثنين. والحقيقة أن الإنتاج الإبداعى العربى الآن، أقول العرب على العموم، صار يشكل تحديًا للإنتاج الإبداعى المصرى، المشكلة هى أن كل دولة عربية على حدة لا تستطيع أن تقدم ما تقدم مصر. والسؤال هنا هو أنه قد حان الوقت، وغالبًا منذ سنوات ألا نتحدث عن دور ريادى واحد لدولة واحدة. وإذا تذكرنا حجم اهتمام الطلاب فى جامعات المغرب بالثقافة بوجه عام، وكثافة اتصالهم بجديد ما تنتجه أوروبا، وفرنسا خاصة، وأن نفس الأمر يحدث ولو بدرجة أقل فى تونس، وأنه سيأتى يوم تعود فيه العراق إلى الساحة الثقافية بقوة، إذا تذكرنا ذلك كله ونظرنا إلى كثافة الحركة الإبداعية فى بيروت، وفلسطين، وسوريا، وبحثنا عن كتاب أصلاء وهم

كثيرون فى ليبيا، يكفى أن أذكر لك الكونى والفقيه من المبدعين وعلى فهمى خشيم من المفكرين وعدد كبير من شباب الكتاب، وإذا أيضًا تذكرنا أنه فى السعودية حركة شعرية وقصصية فتية رغم كل القيود المعروفة وأن الأردن لها إسهامها وإن بحالات قليلة، امجد ناصر مثلاً بلور لنفسه طريقًا فى الشعر مميزًا، ويلقى بظله شيئًا فشيئًا على شباب الشعراء، والأصوات فى القصة عديدة من إلياس فركوح وإبراهيم نصر الله إلى بسمة النسور، ويمنعنى عجزى عن التمييز بين الأردنيين والفلسطينيين من ذكر أسماء أخرى فقد تكون فلسطينية وأنا لا أعرف أو العكس.. على أى حال العالم العربى صار يغلى بالإبداع وإن كان لا بد من مناطق متميزة بعد القاهرة فهى بيروت ودمشق والمغرب والعراق المؤجل، لا نستطيع أبدًا أن نضع المغرب الآن فى غير المقدمة.

سؤال مراكش؟

الطريق إلى مراكش من الدار البيضاء يستغرق وقتًا طويلاً. حوالى خمس ساعات. وهو طريق لا تفارقك فيه الخضرة. وعندما بدأت تظهر البيوت الحمراء عرفنا أننا اقتربنا من المدينة العريقة. مراكش تعنى المغرب، والمغرب تعنى مراكش. هكذا فى وجداننا نحن أبناء الشرق، مراكش ليست مثل الدار البيضاء إذًا. مراكش لها فى القلوب حضور التاريخ. قيامة الماضى. مراكش لا تثير أسئلة فى

العقل، تثير اضطرابا فى الروح. حالة من جيشان الشعور تنذر ببكاء صامت. أو تبشر ببكاء صامت. بكاء يأتى من الانتشاء العميق بالمكان والناس، مراكش تجربة روحية حسية صوفية فوق حدود العقل، مراكش تجربة كتابة فنية، السؤال هو لماذا كل هذه المشاعر التى تهدر فجأة فى قنوات الروح على أبواب مراكش؟

والإجابة لا يمكن أن يقدمها العقل، تقدمها الروح نفسها فى استسلامها لأنفاس المدينة القديمة، لا يمكن الإجابة على هذا السؤال إلا بعمل فنى. قصة فى حالتى، ومن ثم أحتاج إلى وقت أكثر. إذًا أكتفى الآن بما تقدم من أسئلة وأختزن لنفسى (مراكش) بعض الوقت.

الرحلة الخامسة

بواتييه. بوردو. عن القراء والرقص أيضاً

ماذا يقرأ الكُتَّاب؟ عنوان طريف لمؤتمر جاد ينعقد في جامعة بواتييه بفرنسا منذ عشر سنوات الآن ويحضره في كل مرة عدد ممتاز من كُتَّاب العالم. ولقد حضرته أنا عام ١٩٩٩ وجرت وقائعه في الفترة من ١٦ إلى ٢٩ نوفمبر مع عشرين كاتبًا منهم (جلبرت آدير) من إنجلترا و(ميشيل ديجوى) من فرنسا و(الفريد كولليريتش) من ألمانيا و (روبير لافون) من فرنسا و(بير نارد شلنك) من ألمانيا و(فرانك فينالى) من فرنسا و(هيلين زاهافى) من إنجلترا و(إريك كورميير) و(جيرالد ليبلانك) من كندا وغيرهم، لقد سبق لهذا المؤتمر الجاد أن استضاف في سنواته السابقة من الكتاب العرب أدونيس والطيب صالح وصنع الله إبراهيم ومحمد شكرى والياس خورى وهدى بركات وعبدالوهاب البياتى، ولقد كان من أبرز ضيوفه هذا العام الروائى وكاتب المسرح الفرنسى

الذى يكتب بالفرنسية والأوكسيدانية، لغة منطقه فى جنوب فرنسا، (روبير لافون) الصديق المحب للعرب والمناصر للقضايا العربية وبالذات القضية الفلسطينية، وكذلك كان من أبرز ضيوفه الشاعر الفرنسى (فرانك فينالى) الذى افتتح المؤتمر بلقاء معه ألقى فيه بعضًا من قصائده، ومن دواوينه المشهورة فى فرنسا (لماذا تبكى، قل، لماذا تبكى؟ لأن السماء زرقاء، لأن السماء زرقاء). ومن كتبه (الحرب الجزائرية) وهو كاتب وشاعر معروف باحتجاجه ضد العنف والقهر، وهو من مواليد ١٩٣٦ فى أحد أحياء باريس الشعبية، وكثيرًا ما تتردد فى شعره ذكريات باريسية وللأسف قد أصيب فى الفترة الأخيرة بسرطان في الدم مما لون شعره وكتاباته، ولقد تحدث عن هذا العالم الذى يتعذب فيه الإنسان مما يدهشه أو يخيفه أو يواجهه، وتحدث عن تجربة قراءته للصحف فى المصحة، صحيفه مثل (الإيكيب) أو (الموند). أما (روبير لافون) فهو كما قلت كاتب مسرحى وروائى وشاعر أيضًا ومحب للعرب، وتمثل أعماله مكانة ممتازه فى الأدب المعاصر وكذلك كتاباته النقدية ومقالاته، وهو شيخ يتمتع بحس فكاهى جميل فى ردوده ووجه بشوش ودود تشعر أنه صديق قديم لك، وهو كما قلت من أقلية تتحدث الأوكسيدانية فى فرنسا، وهى لغة قريبة من القطالونية فى إسبانيا، وهو يكتب بها كما يكتب بالفرنسية، ولقد كان أكبر الموجودين سنًا، فهو من

مواليد ١٩٢٣ إلا أنه كان يبدو متمتعًا بحيوية وافرة لمثل من هم فى سنه، ولقد حفلت ندوته بجو بديع من الاحتفاء حيث تناوب عدد من تلاميذ وتلميذات الجامعة على قراءة مشاهد من مسرحياته، ومسرحياته المؤلفة بالأوكسيدانية تصل إلى أكثر من عشر مسرحيات كما تتجاوز رواياته العشرين رواية منها رواية (العيد) لافيستا التى تتجاوز الألف صفحة، ولقد تحدث عن أهمية القراءة له حتى وهو فى هذه السن، وكيف ان قراءاته متنوعة باعتباره مؤرخًا أيضًا للأدب واللغة وللجغرافيا الاقتصادية فهو لا يهمل أبدًا ما هو جديد فى هذه الموضوعات، ومن أهم ما يقرأ وفى مقدمة قراءاته الكلاسيكيات اليونانية واللاتينية دائما وبالطبع شعراء التروبادور الذين لولا أصواتهم القديمة لم يكن ليصبح هو أبدًا.

أما (جلبرت آدير) فلعله كان أهم الضيوف من القارة الأوروبية، وهو كاتب إنجليزى مرموق له أربع روايات هى (حب وموت فى جزيرة بعيدة) و(الأبرياء المقدسون) و(موت المؤلف) و(مفتاح البرج) آخر ما صدر له عام ١٩٩٧. وهو يعيش فى لندن ويكتب فى صحيفة (الصنداى تايمز) و(الإسكواير) ويحول قصصًا عالمية للأطفال، وله دراسات سينمائية وترجم عن الفرنسية أشعارًا لسان جون بيرس كما ترجمت له عدة أعمال إلى الفرنسية، وبشكل عام يعد جلبرت آدير كاتب الكتاب كما يقال فى الإنجليزية، ولقد تحدث عن رواج الأعمال العاطفية وسهلة القراءة

وهى الأعمال التى تفوز بجوائز الصحافة فى بلاده وتحدث عن اقتراح بجائزة للروايات الصعبة ذات الحبكة كثيرة التعقيد، وتحدث عن تاريخ الحبكات الروائية المعقدة منذ سر المونت كريستو حتى اسم الوردة لامبرتوايكو الذى استفاد من ذلك. وهكذ كان حديث جلبرت عن الكتابة أكثر منه عن القراءة، وتحدثت أنا عن القراءة كفعل نجاة لكاتب مثلى فى بلد معين من العالم الثالث، أو ما اصطلح على تسميته كذلك، فكما أن الكتابة فعل نجاة فى كثير من فوائدها شفاء من التوتر والقلق الذى قد يعصف، بل يعصف بالكاتب فى مجتمعاتنا، فكذلك القراءة؛ لأنها تتيح للكاتب فرصة الوحدة، والعزلة، لكن وشأنى فى ذلك مثل كثيرين، لم أستطع أن أقرأ أدبًا خالصًا فقط، بل امتزجت قراءاتى بالفلسفة والتاريخ والعلوم الإنسانية التى درستها عن قرب، والأهم من ذلك أن القراءة فى السياسة والاقتصاد نالت جانبًا من الحظ خاصة فى مقتبل العمر، الآن اقرأ أكثر السير والتراجم والشعر والرواية وبعض الكتب التى لا تنفذ متعتها مثل ألف وليلة ،ليلة وكتاب لا أحاول أبدا أن افهمه لأبى العلاء المعرى وأقرؤه كثيرًا لأستمتع بإيقاعاته الموسيقية فى لغته الصعبة ألا وهو كتاب الفصول والغايات. من الممكن جدًا أن أفهمه لكنى لا أحاول، وأكتفى بالصوتيات فيه، وتحدثت عن القراءة فى بلادنا وكيف أن القراء عندنا يقرءون الآداب العالمية التى تصل إليهم، وليس لدينا إحساس بالامتلاء الذى هو عند

الأوروبى الذى قد لا يهتم كثيرًا بآداب الأمم الأخرى، نحن نقرأ أدب الغرب والشرق، بل إن الشرق وأمريكا اللاتينية وإفريقيا صار يأخذ مساحة كبيرة الآن فى قراءات الكتاب..

أمّا ميشيل ديجوى فهو شاعر ومترجم وباحث فرنسى من مواليد ١٩٣٠ وقد ترجم أعمالاً فلسفية لهيدجر وبول سيلان، وترجم من الأدب الأمريكى واسس مع (جى. بى. جومى) مجلة للشعر وترجم فيها لدانتى وهولدرلين وكتب مع (جى. بى. ديبى) كتاب (رينيه جيرار ومشكلة الشر) وهو عضو فى أكثر من هيئة ثقافية فرنسية وتراس أكثر من مؤتمر للشعر الفرنسى وهو رئيس اتحاد الكُتّاب منذ عام ١٩٩٢. وله دواوين كثيرة نشرت أغلبها فى جاليمار وحازت على جوائز عديدة فرنسية مثل جائزة فينيون عام ١٩٦٠ وجائزة ماكس جاكوب ١٩٦٢ وجائزة مالارميه عام ١٩٨٥ ومن دواوينه (أفعال) و(تشكيل) وقصائد الستينيات، وتحدث عن اختفاء الكتاب، هذه العلبة الصغيرة بين يدينا أو مركونه فى مواجهة. الحوائط. صارت المكتبة عجوزًا، وهو يتحدث عن مكتبته العجوز، وتحدث عن أصدقائه القدامى فى الكتب، آرجون، وفاليرى وكلوديل، والكسيس ليجيه، وتراكل، لقد مر وقت طويل عليه وتغير كل شىء فيه إلا الضمير الذى هو يتفاعل مع الزمن ليظل موجودًا، وتظل هناك إمكانية دائمة لاكتشافه بالقراءه، إن زمن القراءة يبحث عن الحقيقة. وزمن بروست هو زمن

كـاتب يبـحـث عن سنوات الأسلوب الجـمـيل اليـست المـعـرفة هى مـعـرفـة القـراءة؟ يتسـاءل والإبداع إبداع كتاب؟ والقراءة قراءه المـعرفة والأعـمال المبـدعه، من قبل الكتاب (إنها حقًا لدائرة جميلة، إن مـعرفتى هى من خـلال الكتب، وأنا لا أعـرف أبدًا الفعل أو العـمل، إذا قـدر لى أنـى بقيت وحـدى فى عـالم دمـرته الكارثة كما يحدث فى الأفـلام فلن أستطيع أن أعيد فـعل ما تم فـعله. لقـد انتـهى الإنسـان الصـانـع..) أمـا هيلين زاهافى (المولودة فى لندن لأبوين يهوديين جاءت فيها الأم من أوديسـا بروسـيـا وجـاء الأب من بولنيـا ووصل كـلاهـمـا إلى إنجلتـرا أثناء الحـرب العـالمـيـة حـين هاجمت المانيا بولندا، لقد درست هيلين الروسية فى انجلتـرا وعـملت بالتـرجـمـة وأصـدرت روايتـهـا الأولى (عطلة نهـاية الأسـبـوع القـذرة) عـام ١٩٩١.، التى ترجـمـت إلى عـدة لغـات ثم حولت إلى فـيلم سينمـائى أخـرجه ميشيل واينـر عـام ١٩٩٣ ثم أصـدرت روايتها الثـانيـة (قـصـة حقـيـقـيـة) عـام ١٩٩٤ ثـم رواية (دونا والرجل السـمـين) عـام ١٩٩٨.. وفـى هـذه الـروايات تتـجلـى العــلاقــات بين الجنس والإرادة. تحـطيم التـابوهات والأنمـاط المـستـقرة والعنف المـوجـه إلى المـرأة.. ولقـد قـدمت هيلين قـراءتها بوصـفـهـا قـراءة للمـدينة كما هى قـراءة للكتب، مـدينة لندن بالتـحـديد، فالمدينة مثل النص يمكن قراءتهـا تمامًا، قـراءة أبنيتها واستـعـارتهـا وجـملهـا اللغـوية الحـضـرية حين يـعـبـرها المـرء بالسـيـارة ويتـجـول فى أحـيـائهـا أو يغـوص فى

عجائب المترو تحت الأرض، إنها قراءة مليئة بالخوف والبارانويا، لكن هذا هو ما تعود عليه الشخص ويعرفه ومن ثم فهو ينساه لكنها تحافظ على هذه القراءة بقدر الإمكان كما يحافظ الإنجليزى على قراءة باريس حين يأتى لزيارتها أو للتعلم فيها فهو يرى شوارعها جيدًا ومتاحفها وتنسيق أشجارها وطعم الحرية فيها وهكذا..

من كندا، من المنطقة الناطقة بالفرنسية كان هناك كاتبان، أريك كوريبه، وكان أصغر الشعراء سنًا فهو من مواليد ١٩٧٩، جيرالد ليبلانك الذى نشر أولى مجموعاته الشعرية عام ١٩٨١ وله حتى الآن ست مجموعات شعرية والاثنان من منطقة (برونزفيك الجديدة) لكن الأول من مدينة روبرت فيل والثانى من مدينة بوكتوش ومنطقة برونزفيك تقع فى أقليم أكاديا بكندا، يقول جيرالد ليبلانك إن تقريره عن القراءة سيكون متوحشًا فهو من مواليد أمريكا الشمالية فى قرية بوكتوش فى قلب قرية أكادية وهى طبعًا غير أكاديا القديمة بالعراق. وهى قرية صارت مشهورة بعد رواية للكاتب (أنتونين ميليه) عنها لكنه ولد فى منزل فقير كان خاليًا تمامًا من الكتب وعندما بدأ يقرأ وسقطت الكتب بين يديه بدا كمن امتلك، عالمًا جديدًا، وهكذا أخذ القراءة حيث كان يجدها ومن أى نوع، علمية، خيالية، روايات، روايات شعبية، ثم الشعر الذى وجده أكثر تصميمًا، وهكذا قرأ رامبو، بودلير، ابوللونير، وصار لدى الإحساس بأنى أمتلك لغة أخرى

داخل لغتى الأصلية فى عام ١٩٩٨ كنت أقرأ كما أتنفس أكسيجينًا نفسيًا من أجل الفهم وأيضًا لتأكيد الحدوس والانبعاثات النفسية، قرأت (ريلكة) دون أن أفهم كلمة واحدة من الألمانية، ولقد قرأت كل نص بأذن أكادية.

قل لى من تقرأ؟ سألنى أحد المعجبين مرة، إن قراءاتنا هى التى تحددنا.

فى بوردو

لم يكن الوقت كله الذى قضيته هناك فى بواتييه، خطفت ليلة إلى بوردو لحضور ندوة ولقاء مع الجمهور فى جمعية صغيرة للفنون التقليدية. تركت بواتييه الصغيرة الهادئة، آخر مكان وصل إليه العرب فى أوروبا بعد أن استولوا على الأندلس، ومن المؤكد أنهم لو انتصروا فى بواتييه لما استطاع أحد أن يوقفهم فى أوروبا كلها، لقد عادوا من فرنسا إلى الأندلس، لكن بعد سقوط الأندلس أخذ الكثير من المسلمين عبيدًا إلي فرنسا، إلي بواتييه وما حولها من ريف من أجل أن يعملوا بالزراعة التى أجادوها فى إسبانيا لذلك تجد بعض السحنات السمراء فى ريف بواتييه، وبواتييه دخلت إلى حياتنا فى العصر الحديث لأول مرة مع الزعيم الوطنى مصطفى كامل الذى حصل من جامعتها على ليسانس الحقوق ولا يزال هناك تقليد قديم فى بواتييه أن تستضيف بعض طلاب العلم من القانونيين العاملين فى وزارة العدل، ولقد قابلت أحدهم هناك.

(بوردو) مدينة مختلفة، أنها أكبر مدن الجنوب الفرنسى وأغناها فهى عاصمة مزارع العنب ومدينة النبيذ فى العالم وسكانها برجوازيون أثرياء، الفرنسيون طبعًا وليس الأجانب، وهى تقع على نهر الجارون أكبر أنهار فرنسا من ناحية العرض على الأقل، الذى يصب فى المحيط الأطلنطى. هذا المحيط اللعين الذى يقذف بحمم البرد على بوردو فكاد يقتلنى لأنى تصورت أن بوردو بما هى فى الجنوب ستكون أكثر حرارة من بواتييه وباريس فإذا بالحرارة فيها تنخفض عن الصفر وندمت لأنى تركت البالطو فى بواتييه وكدت أتجمد فى شارع فيكتور هوجو فلم أمشِ كثيرًا وانتظرت الندوة فى جمعية الفنون التقليدية...

كان معى الشاعر العراقى والقاص الجميل صاحب المجموعة القصصية الإنسانية البديعة (وداعًا أيها الطفل) أعنى به (جبار ياسين) الذى خرج من العراق عام ١٩٧٦ وهو بعد فى الثانية والعشرين من عمره ولم يعد للعراق ولم ينس العراق.

ولقد كان جبار هو مقدمى فى بواتييه فى الندوة ومترجمى هناك ومعه كلود مورسيه أستاذة الأدب المقارن التى قرأت النص الفرنسى، وكان جبار رفيقًا جميلاً فى كل الرحلة وهو أحد المسئولين عن النشاط الثقافى فى جامعة بواتييه.

كانت الليلة فى بوردو له ولى في هذه الجمعية الصغيرة التى تشرف عليها فتاة لامعة نشطة هى (إيمانويل بابينو) ولقد كان برنامج الندوة بسيطًا ومدهشًا، يبدأ بلقاء لى مع الجمهور أقرأ فيه شيئًا من روايتى البلدة الأخرى بالعربية ثم تقرأ إيمانويل بالفرنسية من الرواية المترجمة. وبعد ذلك أتحدث عن روايتى التى ستصدر قريبًا بالفرنسية، رواية لا أحد ينام فى الإسكندرية ثم أجيب عن أسئلة الجمهور. بعد ذلك بدأ جبار يلقى شعره الجديد عن أطفال العراق وإنسان العراق المحاصر.

ولقد شهدت الليلة مناقشات جميلة حول الرواية فى مصر والشعر فى العراق ثم قدمت راقصة جزائرية شابة فاصلاً من الرقص الشرقى الممجون برقص الجبال. ولقد كانت الفرقة الموسيقية المصاحبة لها كلها من المغاربة والجزائريين، وهى الفرقة التى صاحبت جبار فى قراءاته الشعرية. لقد قرأ الشعر على دقات الدفوف والطبول فكانت تجربة مثيرة بحق وشجية، ولقد قامت إيمانويل التى بدا أنها تجيد كل شىء بمصاحبة جبار بالطبل هذه المرة، ولقد عرفت أنها فضلاً عن إدارتها للعمل وتمثيلها وعزفها رسامة ماهرة للكتب، والجمعية الصغيرة هذه التابعة لنشاط الإقليم كانت تتسع لعدد لا يقل عن ثمانين من الحضور، والعجيب أنه بعد الليلة الفنية الروائية الشعرية الموسيقية هذه قامت إيمانويل بدعوة الجمهور إلى العشاء على شرف الكاتبين

العربيين فى مطعم تركى كبير مفروش على الطريقة العثمانية به «الشيشة» الضخمة ذات المباسم المتعددة واللحم الحلال، وكان اسم النادل ميميد فذكرنى بروايات ياشار كمال عن ميميد الناحل وميميد الصقر ولقد أدهشنى تلك الليلة حديثى مع الفتيات المغربيات والجزائريات فهن أقرب إلى المحجبات، لا يأكلن إلا اللحم الحلال، فى محاولة لمقاومة هذا المجتمع الغربى المفتوح، ويبدون لى قادرات على المقاومة، والحقيقة أن المجتمع الفرنسى فى النهاية مجتمع مخيف بانفتاحه اللانهائى، وهذه الطريقة تبدو مهمة للمغتربين على الأقل للتماسك أما طوفان الحضارة المادية، ولكن دهشتى البالغة كانت من الراقصة الجزائرية التى اسمها ليلي. كانت شابة صغيرة وجميلة وسألتنى عن رغبتها للحضور إلى مصر وهل من الممكن إن تجد عملاً. قلت لها طبعًا، الراقصات بالذات يجدن عملاً بسهولة، وضحكت وقلت لها أن رقصك مميز بالسرعة وعدم الخلاعة وقد يكون هذا جديدًا فى السوق فبدت سعيدة ثم قالت لى إنها تريد أن تعمل فى مكان نظيف يعطيها الفرصة لدراسة علوم القرآن فى الوقت نفسه، كانت تحدثنى بالفرنسية وتحاول أن تقربها من قدرتى على الفهم فلقد أخبرتهم أن فرنسيتى ضعيفة، والعجيب أن كل المغاربة والجزائريين، الذين قابلتهم تلك الليلة من طلبة جامعة بوردو أو الفرقة الفنية لا يعرفون من العربية كلمة

واحدة! وإن كانوا يفهمونها فى بعض الأحيان قلت لليلى أن تعيد ما تقوله فقالته.

سكت قليلاً وقلت لها إذا رقصت فى مصر فلا أظن أن أحدًا ممن ستقابلينهم سيعطيك الفرصة لدراسة علوم القرآن، عليك إذًا أن تأتى إلى مصر وتعملى أى عمل آخر، فسكتت ولم تتكلم بقية الليل.

فى باريس

كان لدى الوقت أن أمضى يومين فى باريس أقابل فيها بعض الأصدقاء، التقيت بالكاتبة والشاعرة والمخرجة المصرية (صفاء فتحى) التى تعيش منذ زمن فى باريس وتقوم الآن بإخراج فيلم تسجيلى عن (جاك دريدا) المفكر المعروف ومؤسس التفكيكية فى النقد الأدبى، والتقيت بفرنسوا زبال رئيس تحرير مجلة قنطرة التى تصدر بالفرنسية فى معهد العالم العربى، وهى مجلة فصيلة لكنها نافذة ممتازة للفرنسيين على الثقافة العربية، ويديرها بموضوعية ونبل حقيقى فرانسوا زبال، ويكاد يقسمها بالقسط بين الدول، والكُتّاب العرب ويالها من مشقة!.. والتقيت طبعًا بفاروق مردم بك مستشار المعهد ومسئول نشر الأدب العربى بدار آكت سود أكبر دور النشر الفرنسية المهتمة بالأدب العربى وترجمته وتحدثنا كالمعتاد عن قلة الدعم العربى لهذا النشاط المهم وعن ضرورة دعم أحد من هذا العالم العربى لدور نشر أخرى تساعد على نشر وترجمة الأدب

العربى؛ لأن آكت سود وحدها لا تستطيع أن تستجيب لهذا الإنتاج العربى الغزير وخاصة فى الرواية، وكعادتى حين أذهب إلى باريس أمضى الوقت بعد الظهر فى مشاهدة الأفلام فى (السينى سيتيه) بالهال، وهى أكبر مركز للسينما فى باريس حيث توجد أكثر من عشرين قاعة عرض منها أثنتا عشرة قاعة فى طابق واحد، وحولها المطاعم والمشارب التى تقدم لك مشاهد من الأفلام المعروضة وقت انتظارك للدخول، والهال هو سوبر ماركت عصرى، أشبه بمدينة كاملة مكونًا من عدة طوابق تحت الأرض وفوق الأرض، ويشغل مساحة جبارة ويمر به شريط للمترو فهو معرض لكل فنون وبضاعة فرنسا فى كل شىء ومن كل صنف وبكل الأسعار المتاحة وقريبًا منه مركز بومبيدو للثقافة والفنون فهى منطقة مشغولة بالحركة والجمال لاينافسها إلا (السان ميشيل) أو الحى اللاتينى الذى هو أقرب لحى الحسين عندنا فى رأى صديقنا عاصم حنفى والسان ميشيل أو الحى اللاتينى هو المكان الذى أتسكع فيه دائمًا حين لا يكون هناك سينما أو مواعيد مع أحد، أشترى منه بعض الكتب والصور القديمة وأعرج على السان جيرمان لشراء ما يلزم من هدايا هى عادة فاخرة ومتوسطة السعر قياسًا على أسعار فرنسا، هذه المرة لم يكن لدى وقت لمشاهدة غير فيلم واحد هو عين الثعبان لبريان دى بالما مخرجًا ونيكولاس كيج ممثلاً، وهو فيلم إثارة أمريكى فيه يتورط حارس وزير الدفاع

الأمريكى فى مؤامرة لقتله مع مافيا شركات تصنيع وتوريد الصواريخ، إنه فيلم أمريكى نموذجى للإثارة كان يمكن أن يقوم به أى مخرج آخر وليس بالضرورة مخرجًا كبيرًا كدى بالما!!.. لقد كان ضيق الوقت وراء امتناعى عن الاتصال بعدد من الكتاب العرب الذين أحبهم ويعيشون فى باريس، وبسبب أن هذا العام هو عام لبنان، فى المعهد التقيت مصادفة مع الشاعر (عباس بيضون) فى معهد العالم العربى وعرفت أن عددًا لا بأس به من كتاب لبنان يتقاطرون على باريس، حسن داوود وإلياس خورى وعبده وازن وغيرهم واكتفيت بلقاء جميل مع الكاتب التونسى الذى يعيش ويعمل فى باريس، الحبيب السالمى الذى لا نعرفه فى مصر كثيرًا وهو جدير بأن نعرفه كثيرًا جدًا فهو صاحب روايات جميلة منها (جبل العنز) وصورة بدوى ميت و(متاهة الرمل) أمضينا أكثر من ساعة بمقهى قريب من ميدان الجمهورية، وفى اليوم التالى أخذت طريقى إلى القاهرة متعجلاً كالعادة حين أبتعد عنها رغم كل ما نعانيه فيها، وفى المطار وجدت موظفة (الإير فرانس) تبتسم لى وتعتذر عن عدم ركوبى الطائرة فى الموعد المحدد، أنا وعدد آخر من الركاب وذلك بسبب زيادة طارئة فى الأوزان التى صعدت إلى الطائرة. طيب وماذا سنفعل؟ قالت إننا سنأخذ طائرة أخري إلى روما و من روما نركب الطائرة إلي القاهرة، وهذا يعني أننا سنصل متأخرين ثلاث ساعات بعد الموعد الأصلى الذى كنا سنصل

فيه لو ركبنا طائرة الإيرفرانس مباشرة إلى مصر، ثم قالت لى لكننا سنعوضك، بمبلغ ألفين وخمسمائة فرنك عن هذا التأخير... أصابنى الذهول للحظات، اولاً لأنى كنت أنفقت كل ما معى فى فرنسا واحتفظت فقط بمائتى فرنك لزوم التاكسى فى القاهرة واى شىء ممكن أن أشربه أو آكله فى مطار شارل ديجول، وثانياً لأنى لم أتعود على هذا التعويض حين تتأخر الطائرات العربية، ولما وجدتنى صامتًا قالت هل يضايقك أن تعود إلى البيت متأخرًا اليوم عن الموعد؟ ابتسمت وقلت لها هل تعرفين ماذا أعمل؟ قالت لا، قلت كاتبًا ومؤلفًا للقصة والرواية؟ وهذا يعنى اننى لم أعد أبدًا فى حياتى إلى البيت فى الموعد ولا مبكرًا، دائمًا ومنذ أكثر من ربع قرن أعود متأخرًا فلن يضيرنى أن أضيف إلى ذلك الزمن يومًا أخر، فأخذتنى من يدى إلى المكتب وسلمتنى الألفين وخمسمائة فرنك وهى فى غاية السعادة بهذا الكاتب الذى لا يعود فى موعده، فأخذت طريقى إلى محلات السوق الحرة الفرنسية وخلفى المصريون الذين سيتأخرون معى.

الرحلة السادسة
ساحل مريوط

مرايا المدن الصحراوية

هل أستطيع الإمساك حقًا بالحكايات القديمة؟ لكل الأطفال حكايات الجن والعفاريت واللصوص والثعالب فى ليالى الغضب. وحكايات البلبل والأميرة والشاطر حسن وعقلة الأصبع فى ليالى الرضا العائلى، نسيت حكايات جدتى عن الريف، نسيت حكايات أمى فى ليالى الرضا أو الغضب، حكايات أبى نفذت فى الروح واستقرت، ولا بد أيضًا أنها أحاطتنى بسياج من عجائبها، إنها حكايات الحرب العالمية الثانية، بصفة عامة، وحكايات العلمين بوجه خاص.

العلمين؟!.. من منا لم يسمع بهذا الاسم؟.. إنه معركة مصر وإسهامها العظيم فى الحرب العالمية الثانية. الأرض حاربت مع الحلفاء، ذلك عرفته فيما بعد، فهى ليست معركة مصر باعتبار وقوعها فيها كما قصد تشرشل.

رأيت العلمين. لم تكن أكثر مما قال أبى. محطة سكة حديد صغيرة لم يكن القطار يقف عندها طويلاً، جاءت جيوش الدنيا لتقف حولها وتقتتل. ما تبقى من القتال الآن هو المقابر الشهيرة لجنود الكومنولث وجنود المحور أيضًا وجنود فرنسا الحرة والفيلق اليونانى، تلك التى يأتيها الأبناء والأحفاد والأقارب طوال العام من كل الدنيا لزيارة مفقوديهم. وقامت حول المحطة بضعة بيوت صغيرة من حجر يعيش فيها قليل من البدو والذين تركوا خيام الوبر.

(قال لى أبى إنه انتقل للعمل فى محطة سكة حديد العلمين فى نفس الأسبوع الذى نشرت فيه الصحف نبأ تسلم (روميل) قيادة الفيلق الإفريقى من جرازيانى الإيطالى الذى تعرض لهزائم متتابعة من البريطانيين. وإنه، أبى، فكر من إمكان مقابلة روميل وجهًا لوجه. لقد أحس أن روميل سيأتى إلى العلمين).

قلت:

- لماذا لا تذهب إلى الطبيب يستأصل لك هذه الندبة التى فى أصبعك؟

تأملنى مليًا وقال:

- ولماذا الطبيب. يمكن أن تفعلها أنت.

كنت فى الثانية عشرة من عمرى. وقال:

- إنها ميتة. هات «الموسى».

أحضرت له «الموسى» وأنا أفكر لماذا ترك هذه الشظية التى سكنت أعلى السبابة بعد انفجار أحد الألغام الصغيرة فيه بعد الحرب كل هذا الوقت، ولماذا وافق على استئصالها اليوم؟

مد لى أصبعه وطلب منى استئصال اللحم الزائد بالموسى فجفلت. أمسك بالموسى وشق اللحم المتجمع فوق الأصبع بلا أى ألم وأخرج منه شظية سوداء فى حجم خرزة صغيرة قدمها لى فأمسكت بها وشعرت بصلابتها وخشونتها بينما أستأصل هو اللحم الزائد ثم لف أصبعه بقطعة شاش.

(كان قد حدثنى كثيرًا عن ذلك اللغم الذى انفجر فيه فأصاب فخذيه وبطنه بثقوب عديدة وكيف داواه البدو بطريقة عجيبة حيث كان طبيبهم يأتى بدهن الغنم ثم يذيبه على النار ثم يسكبه فى الثقوب التى ملأت ساقى وبطن أبى حتى التأمت.

لم يتركنى ألقى بالشظية، ولم يتخلص هو منها. وضعها فى كوب نظيف وضعه على رف بالحمام ومع الوقت اختفت ولم يسأل أحد عنها.

امتلأت منذ الخامسة من عمرى بالحكايات الغريبة عن الحرب التى لم أرها وكبرت أبحث عن (العلمين). وجدتها أكبر من حكايات أبى عن السائق الهندى والفرقة الإسكتلندية ومشاهد القتل والهروب فى الصحراء ومشاهد البدو والحيوانات التى تفر على غير هدى تحت الطائرات وأمام القذائف، ولفات

أبناء المستعمرات التى لم يكن يفهم منها شيئا وجروحه هو وإصاباته. احسست أنى منذور لرؤية العلمين ومعرفتها لكنى وأنا أفعل ذلك تذكرت أنى قطعت مع أبى رحلات كثيرة على طول ساحل مريوط، والعلمين مدينة صغيرة على هذا الساحل تكبر الآن بسرعة مدهشة، الساحل كله يتغير معها، ليس مجرد مكان تغتاله القرى السياحية لكنه تاريخ أيضًا وإن لم يدرك ذلك المستثمرون.

جريان فى التاريخ

ساحل مريوط، أو ساحل ليبيا كما أسماه القرطاجنيون قديمًا، هو مدخل مصر الوحيد من ناحية الغرب - بالطبع قبل ظهور الطائرات والصواريخ - منه جاء الحاكم الليبى (شيشنق الأول) لغزو مصر عام ٩٤٥ ق.م، وأسس الأسرة الثانية والعشرين. وعلى نفس الساحل خرج (إيريس الأول) رابع ملوك الأسرة السادسة والعشرين المصرية عام ٥٨٨ ق. م قاصدًا (قورينا) فى برقة بليبيا لتخليصها من حكم الإغريق لكن غزوته لم تنجح.

وعلى هذا الساحل نفسه مشى الإسكندر الأكبر عام ٣٢٣ ق.م مخلفًا الإسكندرية التى لم تتم خلفه لزيارة معبد آمون فى سيوة، وأكمل بطليموس الأول الإسكندرية، ثم قطع الساحل أيضًا إلى قورينا فى ليبيا، وضمها إلى مصر.

حـركـة الذهـاب والإياب لم تنقطـع على السـاحل، وبعد هزيمة كليوباترا وابتداء العصـر الرومانى، صار الساحل أكبر مكان لزراعة الغلال بعد وادى النيل، ثم تدهور وانقطعت الحركة عليه أو كادت حتى فتح العرب مصر، وخرجت عليه الجيوش غازية إفريقيا والمغرب. لقد كان ذلك الوقت، رغم التدهور، حدائق متصلة من الإسكندرية إلى برقة. ذلك مذكور فى كتب المؤرخين القدامى.

على أن من أشهر من مروا على الساحل، القبائل العربية المهاجرة من نجد والحجاز، قبائل بنى سليم وبنى هلال الشهيرة، ثم الجيوش الفاطمية التى جاءت إلى مصر من أقصى المغرب العربى. هو إذًا طريق ذهاب وإياب تاريخى، وإن ترهل الوقت بين كل خروج ودخول، وسيكون طريق ذهاب وإياب للجيوش أثناءالحرب الثانية، لكنه ذهاب وإياب سريع دائمًا. لقد تقدمت الحروب ولم يعد الجنود يتحركون على الخيل والأقدام لكن من هم أولئك الذين سكنوا الساحل كل هذا الوقت؟

فى البداية سكنه اليونانيون والبطالمة وقليل من المصريين العاملين فى الزراعة أو الخمور أو صناعات الزجاج والفخار، ثم ازداد المصريون بعد أن دخلت المسيحية مصر وازداد اضطهاد الرومان للشعب فراح يفر إلى الصحراء الغربية، كتب التاريخ

تذكر دائمًا الفرار إلى الجنوب وقليلاً ما ذكرت الفرار إلى الساحل الشمالى.

بعد الفتح العربى تحركت عليه القبائل ذاهبة آيبة فى الحرب والسلم، يمكن طبعًا تتبع حركة القبائل فى مصر فى كتب مثل (كتاب العبر) لابن خلدون أو (نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب) للقلقشندى، أو (جمهرة أنسان العرب) لابن حزم أو كتب عصرية مثل (قبائل العرب فى مصر) لأحمد لطفى السيد أو غيرها، لكنا نصل بسرعة إلى ما انتهى إليه الأمر من استقرار مجموعتين من القبائل هى الموجودة الآن على طول هذا الساحل، وداخله أيضًا فى ولاية برقة الليبية. المجموعة الأولى هى (عرب السعادى - المنسوبون إلى أمهم) (سعدى) من قبيلة (زناتة) بل هى بنت شيخ القبيلة. وتضم عرب السعادى قبائل (على الأبيض) و(على الأحمر) و(السننة)، لكن يطلق عليها جميعًا أولاد على. أما المجموعة الثانية من القبائل فهى قبائل (عرب المرابطين) التى تشمل قبائل (الجميعات) و(القوابيص) و(السمالوس) ولقد سموا بالمرابطين بسبب عملهم حيث كانوا يرابطون على نقط الحراسة بينما يترك القتال لعرب السعادى. الآن قويت بعض قبائل المرابطين لكنهم، جميعًا بوجه عام، مندمجون من ناحية النسب فى قبائل السعادى، حتى انهم ينسبون أنفسهم احيانًا إلى أولاد على أيضًا.

مدن صحراوية

للمدن على هذا الساحل لون وطعم ورائحة. العلمين أصغر المدن. محطة سكة حديد فقيرة، وبضع خيام للبدو، قسمت زمن حرب كونية إلى نصفين.. فى النصف الأول انتصرت قوات المحور في كل معركة، وفى النصف الثانى لم تتهزم قوات الحلفاء، ولخصت البلدة الصغيرة حرب الصحراء فى معركة، وصار من يذكر العلمين فى العالم يعنى ضمنًا، مصر. أما اللون فهو لون التراب. لماذا حقًا ليس لون الرمال؟ دائمًا أرى الناس والبيوت فى لون التراب.

(فضلا عن حكاياته كان أبى يأخذنى كثيرًا فى سفراته عبر الصحراء ورأيت تقريبًا كل المدن حتى مرسى مطروح).

وجوه البدو مكشوفة. أولاد على قبائل غير ملثمة، ليسوا كالطوارق مثلاً فى الصحراء العربية الكبرى. وطعم المدن هو طعم الحر المعجون بالوبر، وبر الجمال والأغنام والماعز والفراش وندرة الماء، تعرف الطعم من الرائحة ولا تجفل ولا تتململ. لكن هل هى مدن حقًا تلك المطروحة على الساحل الطويل؟

بمقياس الصحراء هى مدن، بدأت قديمًا كمراكز للأسواق، أو الانتجاع، كانت البضائع دائمًا الزيتون والتمر وزيت الزيتون واللحم والأغنام والتين السلطانى والصبار والحنظل والشيح والشعير والأرانب والقنافذ والصقور والثعابين والحكايات.

أول المدن مدينة (العامرية) على بعد عشرين كيلو مترًا غرب الإسكندرية، وإلى الجنوب الغربى من بحيرة مريوط الممتدة وراء ظهر الإسكندرية، ويمر أمامها الخط الحديدى الصاعد غربًا إلى السلوم.

(كان أهم قطار يقطع الصحراء هو قطار المياه، وكان يمر على البلاد مرة كل أسبوع ومن لم يستطع الحصول على حاجته من الماء تلك المرة كان يمكن أن يموت ، لكن البدو الذين يسكنون عادة بعيدًا عن محطات القطارات، كانوا لا ينتظرونه. لا يشربون إلا من مياه الآبار).

والعامرية عرفت أيام محمد على باسم (كنج عثمان) و(كنج عثمان) نفسه كان أمير الضيافة عند الوالى. وفى عهد سعيد حملت اسم (برنجى مريوط) أى أول مريوط. هذا يفسر اسم البلدة الصغيرة (كنجى مريوط) ،أى الثانية فى مريوط، وهى ضاحية تشتهر بطواحين الهواء، هواؤها جاف طوال العام، فهى مشتى ومصيف معًا ومنتجع صحى. إنها تقع فى نفس زمام العامرية، وإداريًا خاضعة لها، لكنها تبدو كأنما اختصها الله بهواء ساحر عجيب يتجمع فى سقف الدنيا وينزل إليها طريًا منعشًا فتدور الطواحين تصعد بالماء النقى المحبوس منذ ملايين السنين تحت الصخور ليروى مزارع التين واللوز والرمان والعنب وذكريات الزائرين، زرت كنج مريوط أول مرة فى صباى الباكر مع أبى، الذى دفعه عمله

بالسكة الحديد إلى كل هذا السفر بالصحراء. ما زلت أشعر بالارتواء الذى شملنى به الفضاء الندى ذو الريح الحنون الجافة، هناك مدن تدخلها فتنسى المدن الأخرى، تتلخص حياتك فى إحساس بالراحة والأمان، تتشبع بالرضا والسكينة فلا يكون هناك مكان فى المكان ولا زمان فى الزمن.

لكن العامرية على العكس من ضاحيتها الجميلة، مدينة طاردة، هى سوق كبير يلتقى فيه أبناء الصحراء بأبناء الدلتا القادمين عبر الإسكندرية ومحافظة البحيرة، لكنها فى كل وقت تبدو مدينة (بزرميط) بلا هوية يتكاثر عليها التراب من كل جانب. ولا علاقة لاسمها بقرية (ماريا) اليونانية القديمة التى اكتشفت بقاياها منذ أعوام قرب الساحل. ربما حملت العامرية اسمها من مرور قبائل (ربيعة بن عامر) و(هلال بن عامر) عليها فى طريقها إلى المغرب، ثم أهمل الاسم حتى قفز إلى الأذهان فى عهد الخديو عباس حلمى. وربما يكون اسمها من تدخل الدولة فى حركة العمران، وهذا هو الأرجح، المهم أنه لا علاقة بين الاسم وقرية ماريا التى ارتبط اسمها بالاسكندرية. لقد كان أهم ما اكتشف بقرية ماريا هو معاصر النبيذ ومخازن الخمور. ربما لهذا غنى السكندريون أغنيتهم القديمة، (إسكندرية ماريا وترابها زعفران).

نبتعد عن العامرية وندخل فى الصحراء أكثر. الزراعة الكثيفة على الطرق الصحراوية بدأت تغير

من طبيعة العامرية، تزيدها اختلاطا. نحتاج إذا إلى وقت حتى تتجلى مدينة ذات هوية.

ثانى المدن، التى بدأت صغيرة جدًا، وتتسع الآن، مدينة (برج العرب) على بعد خمسين كيلومترًا من الإسكندرية اختار (الميجور براملى) مفتش البوليس بمحافظة الصحراء الغربية سنة ١٩١٨، ربوة عالية وأقام فوقها قصرًا فخمًا جمع فيه ألوانًا من التحف وأحاطه بحديقة جميلة قطفت أنا بعض زهور اللوز منها، مخالفًا بذلك تعليمات أبى بأن لا أقترب من الحديقة التى يحرسها الحرس الجمهورى.

- لماذا أنت هنا؟

قال لى جندى الحرس الذى رأيته واقفًا أمامى فجأة.

- أنا لا أسرق اللوز.

ابتسم. كان اللوز فى يدى. قلت.

- أحببت أن أرى جمال عبد الناصر

- الرئيس فى القاهرة. يأتى إلى هنا قليلاً.

وسكت وراح يتطلع إلى مَّليا. لا بد أنه كان مندهشًا من شجاعتى. سألته.

- هل يمكن أن تأخذنى معك أتفرج على القصر؟

ولم يوافق. قال لى أن أكون حريصًا فى المرات القادمة وأن الا أقترب من الحديقة. فى عودتى رأيت شابًا بدويًا يغنى بصوت عالٍ وحده ويمشى مسرعًا بين شريطى السكة الحديد. لا بد أنه على دراية بموعد القطارات حتى يمشى مطمئنًا هكذا، الوقت صيف والحرارة قائظة لكننا نقترب من المغرب. نسمة تتأرجح فى الفضاء تنذر بالطراوة!

لقد انتهى (الميجور براملى) من إقامة القصر والبلدة الصغيرة تحت الربوة عام ١٩٢٤ وأقام حولها سورًا عاليًا جعل له بابين يمر بينهما الطريق المعبد الذى يربط الإسكندرية بالصحراء - لم يعد لهذا الطريق القديم وجود الآن بعد إنشاء شبكة هائلة من الطرق - وزين براملى قصره بالأعمدة والتحف المرمرية التى نقلها من منطقة أبى مينا، حيث تقع كنيسة (بومنا) أو (أبو مينا) التى أقامها عام ٤٠٠م الإمبراطور أركاديوس على قبر القديس (سانت ميناس) الذى قتله أتباع دقلديانوس عام ٢٦٦م عندما لاذ بالصحراء من الاضطهاد..

لماذا أطيل هكذا الحديث عن برج العرب؟ ربما لتكرار زيارتها فى صباى مع أبى. تمنيت مرة أن يأتى شهر رمضان فى الشتاء، كنت أرى أبى متعبًا من الصيام، كان يعيش معه زميل اسمه إبراهيم، وكان مسيحيًا. لكنه كان يصوم مع أبى طوال النهار ثم يشاركه طعام الإفطار.

(لماذا تصوم مع أبى يا عم دميان؟

(لأنك فى الصحراء لا تستطيع أن تأكل وحدك. تحتاج إلى صاحب دائمًا فكيف يكون معى صاحب وآكل أنا وحدى بالنهار ويأكل هو وحده فى المساء؟

ولم يكن الرجل اسمه دميان. لكنى أعطيته هذا الاسم حيث كتبت عنهما بعد أكثر من ربع قرن، قصة قصيرة بعنوان (كان يعرف أسماء البلاد) ثم رواية لا أحد ينام فى الإسكندرية...

فى مساء أحد أيام رمضان ذلك العام، كان أواخر الخمسينيات أو الستينيات، وكان متعذرًا اصطحاب الزوجات فى ذلك الخلاء. فى ذلك المساء هبط علينا شخص ثالث عابر سبيل طلب الطعام فأكل وشرب وزوده أبى وزميله بالطعام والماء والمال أيضًا.

قال العابر ذاك إنه قادم من المحلة الكبرى ذاهب إلى ليبيا مشيًا على الأقدام هاربًا من الفقر والحاجة..

(منذ ذلك الوقت لم أقابل أحدًا من المحلة الكبرى إلا وتخيلته هاربًا من الفقر والحاجة). (طفشان) من البلاد.

فى برج العرب هذه رأيت القنافذ بالليل ملتصقة بقضبان السكة الحديد، واصطدتها وتعلمت أن أمسكها من الأمام وأعود بكفى إلى الخلف فلا تستطيع أن تشرع أشواكها وسألت أبى لماذا يغنى

ذلك البدوى بصوت مرتفع وهو يمشى مسرعًا فى الخلاء؟

أجابنى: إنه يفعل ذلك من أثر الجوع، وكلما ازداد جوعه ازداد صوت الغناء إذًا هو يتبلغ بالغناء. ما أجمله من طعام. قلت لنفسى ذلك بعد أكثر من ثلاثين سنة. أى وأنا أكتب إليك الآن. تغيرت برج العرب، وصارت بلدتين القديمة والجديدة، وأحاطتها الزراعة وامتلأت طرقاتها بالمركبات الزراعية وقاطعات الأحجار من الجبال. ولا بد للوصول إلى العلمين التى لم نصل إليها بعد من المرور على مدينة (الحمام) ثالث المدن أهمية فى الصحراء الغربية بعد العامرية ومرسى مطروح إنها تقع على بعد خمسة وستين كيلومترًا من الإسكندرية، ولقد قامت على أنقاض مدينة (مانو كامينوس) اليونانية القديمة. تقوم هذه المدينة كالعامرية قديمًا، حول سوق شهير يأتى إليه أبناء ليبيا من الغرب، ويقابلهم أبناء الدلتا من الشرق. فيها مسجد قديم يقال إن الذى بناه هو (زياد بن الأغلب) فى طريقه لفتح إفريقية. يعيش فيها بعض المغاربة منذ زمن بعيد. فى الحمام تشعر برائحة المدن الصحراوية الحقيقية. يخيل إليك دائمًا أن كل ما تراه سيتحول إلى سراب. حركة الناس حولك سريعة فى المشى والكلام. فى البيع والشراء. من الصعب الاحتفاظ بوجه فى الذاكرة، إنها مدينة لا تستطيع أن تقف بها إلا متحفزًا إلى المسير، خلقت

لتكون لتبادل المنفعة ثم العودة بسرعة إلى الديار، والخروج منها يعنى الدخول بسرعة إلى العلمين.

«فى العلمين كنت أتلقى هدايا كثيرة من الجنود الإنجليز والهنود والأفريكان كان لدى دائمًا كميات كبيرة من الشاى والعدس والسكر والدخان وجوز الهند والشيكولاتة والولاعات ـ القداحات ـ وعلب الدخان المعدنية المذهبة وأقلام الحبر والكوبيا والجوارب وكنت أرفض الخمور وأعود إلى القرية كل شهر مرة محملاً بهذا كله فتنتظرنى القرية كلها لأوزعه عليها بالمجان، كانت أمك قد تركت الإسكندرية مع الذين هاجروا منها إلى قريتنا جوار كفر الزيات، وذات ليلة طاردتنا الغارات الألمانية والإيطالية ونحن فى القطار، ورغم ابتعادنا عن الإسكندرية لم ينزاح عنى الإحساس بالرعب، وعند محطة كفر الزيات خيل لى أن القطار يقف بالرصيف، والحقيقة أنه كان يتجاوز المحطة بسرعة مجنونة. ما كدت أضع قدمى خارج الباب حتى طرت فى الفضاء لأسقط بعد الرصيف فوق سقف خشبى لحجرة محفورة بالأرض مما ساعد على بقائى حيًا.. فقط ضاع ماكنت أحمله، وحملنى عمال المحطة إلى مستشفى طنطا لأمضى شهرين فى الجبس، ثم عدت إلى العلمين غير مصدق أنى نجوت» لكنى سأترك العلمين لأعود إليها على مهل وبتفصيل. سأقفز إلى بلدة (سيدى عبد الرحمن) المصيف الجميل ذى الرمال البيضاء الذى حمل اسمه من مزار لهذا الولى

البدوى الذى يحمل اسم عبد الرحمن أبو بطيخة. والبطيخة هى التى تكلمت وهى التى أشارت ببناء الضريح والمسجد والمدينة فيما بعد.. لقد كان عبد الرحمن يمشى مع صديق له يعمل حلاقًا باغته بالقول بأنه يمكن أن يذبحه بسكينة فى ذاك الخلاء ولا يعرف أحد.. وبالفعل قام بذبحه وتركه ومضى. بعد عام عاد الحلاق من نفس الطريق ليقف مكان القتل فيرى شجرة بطيخ فى الصحراء؟ إن الحكاية الشعبية الفاتنة تكمل عناصرها بإتقان، يحمل الشرير البطيخة ويجدها كبيرة فيهديها إلى شيخ القبيلة الذى ما أن يشقها بالسكين حتى تقطر الدم، يحاول أن يشقها مرة أخرى فتقطر الدم، يضع السكين جانبًا ويسأله. يطلب الشرير الأمان قبل أن يحكى له القصة، يعطيه شيخ القبيلة الأمان ويعرف القصة يشق البطيخة نصفين ليجد رأس عبد الرحمن بينهما ذبيحًا يقطر الدم ويتكلم طالبًا بناء ضريح فيبنون له ضريحًا ومسجدًا يزوره البدو طوال العام، لكن بلدة سيدى عبد الرحمن هذه كانت منذ زمن بعيد مصيفًا جميلاً، بل من أجمل مصايف ساحل مريوط ومن أشهرها، ولم تكن فى حاجة إلى غزو القرى السياحية الذى يحدث الآن ليعرفها الناس، إنها مصيف قديم لا ينافسه إلا مدينة (برتينيوم) القديمة، أو مرسى مطروح الحالية.

الحب والموت

بعد العلمين عدة مدن مهملة. أشهرها (الضبعة) بلدة الشمس والفراغ، يصل إليها الناس متعبين دائمًا فيجلسون بلا حركة ويبيعون ويشترون بلا هرج. بالكاد يتكلم الناس إذا سألتهم.. وبعد الضبعة مدينة (فوكة) التى حازت بعض الشهرة فى الحرب العالمية الثانية قبل معركة العلمين، إنها منطقة منخفض، تسمى أحيانًا ببئر فوكة لا يمكن إلحاقها بالمدن الصحراوية لقلة أعداد سكانها إلى حد الندرة..

(لا أحد يصدق أننا جرينا من فوكة إلى العلمين بالليل وسط الظلام فوصلنا مع الصباح كانت ليلة مرعبة جاءت فيها الأخبار بانطلاق قوات روميل طاردة القوات الإنجليزية أمامها، وسبقت الطائرات الألمانية والإيطالية القوات، وكان فى فوكة احتياطى الجيش البريطانى من المدرعات والجنود فظلت الطائرات تضرب المنطقة طوال الليل. لقد جريت على قدمى، وسبقت الجنود بمركباتهم التى كانت تحترق ويموتون، ولم أتوقف عن الجرى إلا فى العلمين. جعلنا الرعب نجرى أكثر من خمسين كيلو مترًا).

كلما مررت على فوكة فى طريقى إلى مرسى مطروح لا أصدق أنه يمكن لأحد أن يجرى من فوكة إلى العلمين، لكن لا أحد يعترف بهذا الضعف بسهولة. أى رعب كان.

ومرسى مطروح هى ميناء مصر القديم الذى كانت السفن تخرج منه إلى اليونان وتعود إليه ومنها أدارت كليوباترا معاركها مع روما، ومن الميناء أقلعت السفن لتلتقى باكتافيوس فى (أكتيوم) لتنهزم وتعود سابقة انطونيوس زوجها وحبيبها. وفى مرسى مطروح شاطئ صغير يحمل اسم كليوباترا، كما يوجد شاطئ نصف دائرى صغير يحمل اسم روميل، وفى الشاطئ حمام كليوباترا الشهير الذى كانت تقضى فيها أوقات متعتها مع أنطونيوس.

فى قورينا أيضًا بليبيا يوجد بأحد الشواطئ حمام، أى حوض محاط بالصخور الطبيعية، يقال له حمام كليوباترا أيضًا، لكنه يختلف عن الحمام المصرى بأنه مكشوف وليس مسقوفًا بالصخور الطبيعية، كما أنه ينسب إلى كليوباترا الثامنة ابنه كليوباترا السابعة المصرية الشهيرة - على أى حال فى مطروح أيضًا وفى شاطئ روميل سرداب تحت صخور الشاطئ يعد بمثابة متحف للقائد العجيب روميل به بالطو وحذاء وأشياء لا قيمة كبيرة لها وبعض صور لكنه دائمًا مثير للرعفبة والاستطلاع.

مرسى مطروح فى التاريخ إذًا هى بلدة الحب والموت. لقد شهدت قصة غرام كليوباترا ونهايتها. والحب فى بلادنا، مصر، عادة يقترن بالموت، منذ إيزيس وأوزوريس حتى حسن ونعيمة. والماء يحمل العاشق القتيل دائمًا، حمل أوزوريس إلى ببلوس

بلبنان، ثم عاد وحمل النيل أعضاءه المقطعة. وحمل النيل جثة (حسن) بين القرى. والذين عاشوا فى القرى المصرية يعرفون كم يحمل إليهم النيل كل عام من جثث العشاق. وفى مرسى مطروح كدت أقتل، لم أكن عاشقًا لامرأة من هناك ولا فتاة، كان صديق لى محب دائمًا فوق العادة قد وقع فى غرام فتاة قاهرية تعمل مدرِّسة هناك. كان هو محبًا فوق العادة وكنت أنا مجنونًا فوق العادة وحين طلب منى أن أسافر إلى مرسى مطروح معه لنقابلها وافقت، كنا نعرف أنها تعمل فى المدينة لكن لا نعرف اسم المدرسة التى تعمل بها، وكنا نعرف أنها من القاهرة لكن لا نعرف هل لها أقارب تعيش بينهم هناك أم فى بيت للمغتربات. اندهشت جدًا لعدم توافر هذه المعلومات لدى صديقى العاشق، وفكرنا أن أفضل طريقة للعثور عليها أن يعرف الناس فى المدينة بوصولنا. من نحن حتى يعرفنا الناس؟ كان العام عام ١٩٧٥ وكان الطريق بين مصر وليبيا قد أغلق بسبب الخلافات السياسية، وتعرضت التجارة فى مرسى مطروح إلى كساد وبوار. إذًا نحن صحفيان جئنا نتقصى أحوال المدينة. قابلنا محافظ المدينة ذلك الوقت، الفريق سعد مأمون، أحد قيادات حرب أكتوبر. وقابلنا سكرتير عام المحافظة، وأمين الاتحاد الاشتراكى وأمين الشباب، وأمين تنظيم المرأة، ومسئول التعليم، والتقينا بالناس فى الشوارع، وبالمدرسين والمدرسات فى المدارس، وبمديرى الأمن، وكتبنا مئات من الصفحات التى لن ننشرها أبدًا، واكتشفنا حياة سرية فيها تهريب

ومـخـدرات ودعـارة ورقـيق أبيض، ونـجـحنا أن نلـتـقى بالمـحـبوبة، كانت ضـمن هواة التـمـثيل الذين قـابلناهم فى قـصـر الثـقـافـة هنـاك. رتب صـديقى مـعهـا مـوعـدًا يقابلها فيه فى الغد. وفى الليل جاءنا فى الفندق أحد الشباب يطلب منا مغادرة المدينة مع أول ضوء.

ـ لماذا؟

لأن البلدة كلها تعرف أنكما ليسا صحفيين، وهناك من يريد قتلكما باعتباركما جاسوسين ليبيين.

ـ وما الذى جعلك تتطوع وتقول لنا ذلك.

ـ نظر إلىَّ وقال:

ـ أنا أعـرفك جـيدًا. وأعـرف أنك كـاتب قـصـة من الإسكندرية.

لم أكن نشـرت أكـثـر من ثلاث أو أربع قـصـص. هو يعرفنى حقًا وهو صادق، وتركنا المدينة مع أول ضوء، وتركنا بالفندق أوراقنا المكتوبة وغيـر المكتوبة، ولما ابتـعـدنا بسـيـارة الأجـرة عن مـرسى مـطروح انطلقنا نضحك بشـراسـة. لقـد نجونا من موت أكيـد ولم يعـد صديقى إلى محبوبته. عرف أنها تزوجت.

فى طريق عودتنا قال لى.

ـ ما رأيك لو توقفنا قليلاً عند العلمين؟

أيقظ فىَّ المـاضى الجـمـيل، كـان أبى قـد مـات. وعلى تعـدد رحـلاته التى أخـذنى فـيـهـا مـعـه إلى

الصحراء لم يعد مرة واحدة إلى العلمين، كانت تلك إذًا أول مرة أزور فيها هذا البلد الغامض. وعندما وقفت أمام القبور، ودرست طبيعة المكان، أدركت أن هذه المنطقة أعدتها الطبيعة، وأعدها الله، لتكون يومًا فى القرن العشرين، أرض قتل.

فى العلمين الآن حركة عمران سياحى هائلة، وفى إحدى القرى السياحية الرائعة فيلا للدكتور يوسف إدريس لم يمض بها وقتا طويلاً، يحمل الشارع الصغير بتلك القرية الجميلة اسم يوسف إدريس، لكن الشارع بلا يوسف إدريس نفسه يختلف. بل تختلف الحياة الآن بدون يوسف إدريس عنها به. ماء آسن. يرحمه الله كان هو يحرك الماء، كان طويلاً مهيبًا مثل حراس الحقول. قال لى آخر مرة التقيته إن العلمين هى أجمل مكان فى العالم. هل كان يقصد البحر الممتد أمام القرية السياحية، أم كان يقصد العظمة التاريخية للمكان خلف البحر وإلى الجنوب؟

العلمين فاصلة زمن الحرب

(كنت أعمل على محطة سكة حديد بالعلمين، لم تكن هناك حركة يعتد بها للركاب، قليلاً ما كان يغادر البدو نجوعهم المتفرقة بعيدًا عن المحطة إلى سوق الحمام أو العامرية، كانت القطارات تقذف بالجنود، وقطارات البضائع تقذف بالدبابات والمدافع، انتقلت من العلمين إلى فوكة والضبعة مرتين كل منهما لعدة أيام. عندما بدأ روميل هجومه الكبير سبقت الجيوش

المرتدة جيوش الجمال والأغنام والماعز، والغزلان أحيانًا الهارية من جحيم الصحراء إلى موت محقق. فقط تأجل قليلاً).

فى المتحف الحربى بالعلمين، بقايا أسلحة قديمة، من الذخائر حتى المدافع والدبابات، وملابس الجنود وصورللقادة ونموذج لخطة المعركة وصور للخونة الذين كانوا على اتصال بالألمان، بينها صورة للراقصة حكمت فهمى صاحبة العلاقة الشهيرة بالجاسوس الألمانى هانز أبلر، والتى عرفها أنور السادات، وكان يعرف علاقتها بالألمان، تقول حكمت فهمى إنها فى السجن رأت فتاة بدوية مذعورة كانت قد تم إنقاذها من الموت فى الصحراء بعد أن ضلت الطريق أثناء الفرار مع قبيلتها وصعدت مع قردها الصغير وجلست فوق أغصان إحدى الأشجار. لماذا حقًا وضعوا تلك الفتاة فى السجن؟ سؤال كثيرًا ما يقفز إلى ذهنى. اكتشف البدو بالصحراء الغربية أنهم يمكن أن يثروا ثراء فاحشًا إذا باعوا أراضيهم التى تطل على ساحل مريوط للمستثمرين والمصطافين. ابتدءوا بمنطقة (العجمى) الشهيرة مع أوائل السعينيات. الآن تركوا الساحل الشمالى كله، ساحل مريوط، من الإسكندرية حتى مرسى مطروح، لكنهم لم يتراجعوا إلى الجنوب فقط. صاروا أثرياء يركبون سيارات البيجو والمرسيدس، وبنوا الفيلات بدلا من خيام الوبر، وأكثرهم افتتح له محلات على الطريق،

لكنهم لا يزالون لا يقبلون على العيش فى القرى السياحية الجديدة أو على الشواطئ بوجه عام فلا طاقة لهم على النظر إلى كل هذا العرى للنساء والرجال.

ارض قتل إلهية

العلمين أرض منذورة لحرب لم تتوقعها البشرية، حدثت والآن صارت جزءًا من الماضى عندما وقفت فيها مع صديقى المحب الوامق لفتاة مرسى مطروح أدركت ذلك، وأدركته أكثر حين قرأت عن المعركة. مشيت إلى محطة السكة الحديد فوجدتها كما وصفها لى أبى لم تتغير؛ رصيف منخفض إلى الأرض، وحجرة لناظر المحطة، ومزلقان بدائى يجلس على طرفه رجل ضئيل يمسك بحبل ينتهى إلى عمود خشبى يجذبه فيسد به الطريق على المارة والسيارات وقت عبور القطار، يتركه فيرتفع العمود عن الطريق ويسمح بالمرور بطريقة بدائية انتهت من زمان؛ حيث صار بالمزلقانات آلات إنذار معروفة ورخيصة، لكن هذا هو واقع الحال. ما الذى اختلف فى العلمين إذًا؟ المقابر بدلا من القتال! وحول المحطة بعض بيوت من حجر اتخذها البدو سكنًا لهم بدلاً من (الوبر)، وقيام القرى السياحية على الشاطئ، الشاطئ نفسه اقتلعت منه أشجار التين كما اقتلعت من الساحل كله من الإسكندرية حتى مرسى مطروح. فى العادة لا تستطيع أن تدرس أمرًا ومعك صديق يشاركك الرؤية

أو الكلام. لذلك لم يبق فى زيارتى الأولى للعلمين عام ١٩٧٥ مع صديقى فى طريق عودتنا ـ هروبنا من مرسى مطروح غير نظام وجمال الزهور والمقابر، ولم نفكر أن بالمنطقة مقابر أيضًا لألمانيا ـ وإيطاليا. أدركت ذلك فى زيارتى التالية للمكان، العلمين تقع على بعد مائة كيلو متر من الإسكندرية تقريبًا، لم تكن يومًا بلدًا كبيرًا حتى بمعايير الصحراء. هى منطقة قاسية الطبيعة تقع بين البحر المتوسط ومنخفض القطارة يتوزع فوقها سكان قليلون ينتمون لقبائل على الأحمر وعلى الأبيض والجميعات، الأولى من السعادى والأخيرة من المرابطين، ومنخفض القطارة هو تقريبًا أشهر منخفضات الصحراء الغربية فى إفريقيا، ولا تزال الأجيال المتعاقبة فى مصر تحلم بتنفيذ مشروع منخفض القطارة لإنتاج الكهرباء عن طريق شق قناة من البحر المتوسط تنقل المياه إلى المنخفض إلى عمق ٢٠٠ متر تحت سطح البحر يتيح الفرصة لإدارة توربينات ضخمة تولد الكهرباء. إنه مشروع أسطورى لا يزال فى دنيا الأساطير.

العلمين، صحراويًا مشابهة لغيرها، وعسكريًا تختلف. فالبحر فى الشمال، وفى الجنوب على بعد ثمانية وثلاثين ميلاً يبدأ المنخفض الشهير ومنطقة الرمال الناعمة والمستنقعات الملحية التى يستحيل عبورها. بالضبط كما يستحيل العبور من الشمال

بسبب البحر، والعلمين أيضًا هضبة ترتفع ستمائة قدم عن بقية الصحراء.

كل مكان فى الصحراء يسمح بحركة الالتفاف إلا هنا، وهذا ما وقف روميل عاجزًا أمامه، إن أحد تكتيكات روميل المعروفة هو الالتفاف السريع حول الخصم وتطويقه وقطع خطوط إمداداته والإيحاء له بأنه محاصر فيسود الهرج صفوفه وتتم بسهولة عملية تمزيقه وإبادته، كان البريطانيون يعرفون العلمين جيدًا فتوقفوا عندها فى تقهقرهم أمام القائد العبقرى، لقد كانت هزيمة بريطانيا فى الشرق الأوسط كافية لإخراجها من الحرب بسرعة بسبب البترول الذى يدير دباباتها وطائراتها، لذلك لم يكن الإنجليز مستعدين للتخلى عن العلمين بسهولة..

العلمين إذًا كانت وما زالت موقعًا دفاعيًا نموذجيًا لكنها لم تختلف عن بقية الصحراء فى خصائصها، فى طقسها وأرضها. فكثبانها تتفاوت ألوانها من البنى إلى الأبيض الجيرى على الشاطئ، تسقط عليه أشعة الشمس فتجعله أبيض ناصعًا فى الظهيرة. وبعيدًا عن المناطق المزروعة بالتين تجد الحشائش الليفية والنباتات الشيطانية الشائكة، وبها دائمًا خطر العقارب والحيَّات المقرنة الصغيرة والقوارض، والزواحف الكبيرة والزباب. وهذا كله كان موضع عذاب للجنود، لكن قرب العلمين من الإسكندرية وفر للجنود المياه ووسائل النظافة. وفر للجيش عمومًا الإمداد التموينى والغطاء الجوى.

الأرض فى هضبة العلمين متماسكة تحت طبقة الرمال الضحلة لكن هناك مساحات من الرمال الناعمة، كما أن الأرض الصخرية المفيدة بالتأكيد لحركة الدبابات، ليست مفيدة لحركة الجنود الذين عليهم حفر خنادق لهم وسط هذه الصخور. وأى مقاتل يعرف أن جندى المشاة المحروم من الحفر لإخفاء نفسه وأسلحته إنما هو حيوان عار ضعيف عاجز عن الدفاع عن نفسه.

إن فراغ الأرض الصحراوية يستوعب مليون دبابة وسيارة ومدفع وأكثر إذا وجدت من يملكها. وفى هذا الفضاء يمكن فتح جميع أنواع النيران التى تهلك الجماد والحيوان، كما أن هذا الفراغ من الأرض يتيح حرية المناورة ويغرى بها، وهذا ما حدث مع روميل فى هجومه على الجيش الثامن وطرده من برقة ومطاردته حتى العلمين، إن حرية المناورة، وهى فى علم الحروب عمل تكتيكى، تؤدى فى الصحراء إذا تمادى القائد فيها، إلى عيب استراتيجى خطر هو بعد القوات عن قواعد إمدادها، وهذا ما حدث مع روميل أيضًا وصل إلى العلمين وترك قواعد إمداده فى برقة.

«بعد الحرب لم أقابل جنديًا واحدًا من الفرقة الإسكتلندية. هل تعرف ماذا كان يفعل جنود الفرقة الإسكتلندية، كانوا يعزفون موسيقى القرب. لا أنسى يوم وصولهم إلى المحطة. لقد ملأوا الدنيا صخبًا

بعزفهم، وراح جنود السود الأفريكان يرقصون حولهم والجنود الجنود يضحكون فى دهشة، قال لى جاويش هندى إنهم جاءوا ليعزفوا لهم ساعة الحرب على القرب ليشجعوهم على اقتحام الموت، كان هو يعرف قليلاً من العربية إذ عمل من قبل ملاحًا على سفن تنقل التوابل إلى البصرة، وكنت أنا أعرف بعض الإنجليزية من المعايشة للإنجليز فى الإسكندرية وفى العلمين».

ذهاب سريع وإياب

قلت إن ساحل مريوط كان مسرحًا لدخول وخروج الجيوش والقبائل من مصر وإليها على فترات طويلة مترهلة من التاريخ، وقلت فى الجزء السابق من المقال، إن هذا الذهاب والإياب حدث مرة أخرى لكن بإيقاع أسرع إبان الحرب العالمية الثانية. لقد دخلت إيطاليا الحرب عام ١٩٤٠، وكان معنى ذلك فتح ميدان جديد فى إفريقيا للقتال، بدأ المارشال جرازيانى الزحف إلى الحدود المصرية. احتل السلوم ثم بقبق وتوقف عند سيدى برانى. دخل إذًا حوالى تسعين كيلومترًا فى الأراضى المصرية. عند نهاية العام انطلق الجنرال (ويفل) من مصر فاستولى على سيدى برانى وأسر آلاف الإيطاليين الذين تم شحنهم إلى الإسكندية فى القطارات، واستعاد بقبق والسلوم ودخل الأراضى الليبية فاستولى على (البردية) عام

١٩٤١ وأسر نحو عشرة آلاف جندى إيطالى أرسلهم بالسفن والطائرات إلى الإسكندرية، ثم احتل طبرق بعد حصار لسبعة عشر يومًا، ثم احتل (درنة) ثم (بنغازى) عاصمة إقليم برقة وفى شهر مارس استولت قواته على واحة جغبوب وظهر للعالم انكسار العسكرية الإيطالية، فتمت إقالة (جرازيانى) وتولى (اروين روميل) الألمانى - طبعًا - قيادة قوات المحور وطارد القوات البريطانية فى حركة معاكسة فاستعاد بنغازى ثم بئر حكيم التى كان يدافع عنها الفرنسيون الأحرار، وترك طبرق خلفه محاصرة وانطلق إلى مصر. فى يونيو من عام ١٩٤٢ سقطت طبرق بطريقة مخزية صارت حديث العالم حيث تم أسر ثلاثين ألف من جنود الإمبراطورية البريطانية. منح هتلر روميل رتبة فيلد مارشال، وأرسل إلى موسيلينى يقول:

(إن آلهة المعارك تزور المحاربين مرة واحدة، غير أن من يقعد عن التمسك بها حين تزوره لن يستطيع أن يمسك بها مرة أخرى) كان يقنع موسيلينى بضرورة استمرار روميل فى الإنطلاق داخل مصر، واندفع روميل بجنوده طاردين أمامهم الإنجليز والنيوزيلانديين والأستراليين والفرنسيين والهنود واليونانيين وقليل من المصريين من حرس الحدود والبدو والجمال والماعز والأغنام والوحش والهوام وساد الزعر البلاد..

أبناء الله الصغار. أبناء الكومنولث

عندما وقفت مرة ثانية أمام مقابر الكومنولث بالعلمين أتأمل جمال زهورها وأرضها وتنسيق أشجارها كنت قد أدركت أننى أبلغ من العمر ما كان أبى قد بلغه بالضبط وهو يقف فى نفس المكان الذى كان يعج بحركة المركبات والجنود، لا الصمت وجلال الموت كما هو الآن، كنت مشيت إلى محطة السكة الحديد وعدت. صعدت فوق رصيفها ومشيت ونزلت وعدت، كنت أحاول أن تطأ قدمى كل مكان ممكن حتى أفوز بالوقوف فوق كل مكان وقف عليه أبى. تخيلته فى حيرته على رصيف المحطة يتأمل هذه القوات الغريبة من كل العالم، وهو الفلاح الأصيل الذى لم يكن يتصور أن خلف قريته بلادًا. كم مرة فكر فى أمى، وكم مرة اشتاق لرؤية أختى الكبرى التى كانت على قيد الحياة، بينما مات أول أبنائه من الذكور. ترى هل كان يفكر فى أمه وأخوته؟ ذلك كله زمن لم أعشه. لقد أتيت إلى الدنيا بعد انتهاء الحرب، لا بد أن أبى كان حزينًا وهو يقف بعيدًا عن أهله على محطة كل من ينزل بها غريب من بلاد بعيدة مفرطة فى البعاد. لقد تركت الدموع تنزل من عينى على مهل، وتركت نفسى أمشى بين المقابر أقرأ أسماء الجنود. أسماء مألوفة بالنسبة لى، أسماء بريطانية، لكنى حين انحرفت إلى يسار المقبرة، ناحية الشرق منها، ووقفت أمام أسماء الجنود الهنود راعنى تشابه

أسمائهم من ناحية، وما راعنى اكثر هو أعمارهم.

مقابر الهنود، أو ما تبقى من الموتى! جزءان. جزء به رفات عدد ضخم من الجثث تم حرقها جميعًا. أكثر من ستمائة جثة؛ لاحظ أن المقابر ليست لكل الشهداء فهناك شهداء لم يتم التعرف عليهم، وشهداء أكلتهم السباع والطير، وما هو موجود بالمقابر أعداد رمزية لضحايا تلك المعركة - وإلى جانب الجثث المحروقة والموضوع رمادها فى مكان واحد تمتد قبور مميزة الشاهد كتب عليها باللغة العربية (الله غفور) ثم أسماء لغلام وسر دار ومحمد وهاج الدين وضياء الدين وغيرها من أسماء المسلمين الهنود - لم تكن هناك باكستان بعد وأغلب هؤلاء المسلمين من بيشاور أفقر مناطق الهند ذلك الوقت، وباكستان حاليًا، وأعمارهم جميعًا أقل من عشرين سنة. كذلك وجدت أعمار الهنود الهندوس الذين تم حرق جثثهم. كان بينهم عدد كبير لم يتجاوز السابعة عشرة من العمر، كان أبناء المستعمرات إذًا وقود الحرب وكان موتهم بأعداد هائلة.

بين القبور مقبرتان لجنديين يهوديين كُتب على موطنهما اسم (إسرائيل) لم تكن هناك إسرائيل وقت الحرب لكن المقابر التى أقيمت فى فترة لاحقة، وبالأحرى الذين أقاموا المقابر من المسئولين الإنجليز، لم يجدوا معنى لذكر اسم فلسطين موطنًا ليهوديين تم التعرف عليهما ضمن كثيرين قد ماتوا

دفاعًا عن الإمبراطورية البريطانية. ربما، لكن المؤكد أنهما كانا يتدربان مع غيرهما على القتال الذى سيجرى بعد ذلك مع العرب.

لكن مقبرتين لجنديين سودانيين أوقفتانى بشدة.. عند باب المقابر المهيب تقرأ أسماءالدول التى شاركت فى المعركة، وتقرأ على الجدران قصة المعركة كاملة باللغة الإنجليزية وتقرأ أعداد القتلى والجرحى والأسرى والمفقودين لكل دولة، كان أكثر قتلى الكومنولث من الهنود، وكان أكثر الجنود بسالة الأستراليين، وكان أقل عدد من الجنود شارك فى المعركة من السودان، وهذان الجنديان قد قتلا وتم التعرف عليهما فأقيمت لكل منهما مقبرة. إن السؤال المضحك المبكى معًا هو ما معنى احتياج جيش بهذا العدد الضخم إلى جنديين من السودان. أحد هذين الجنديين يحمل اسم (الصافى النعيم) اسم جميل ذو دلالة. لا بد أنه كان قطعة من الجنة ففضل الالتحاق بها بسرعة. لم يتجاوز أى منهما الخامسة والعشرين كل جنود المستعمرات أقل سنًا من جنود بريطانيا وأستراليا لكن أصغر الجميع جنود الهند صبية وأطفال أراد لهم الله، والكومنولث، الموت فى صحراء العلمين، إنك لا تستطيع بسهولة أن تبرئ الحلفاء من الخطأ رغم أن الحلفاء كانوا يحاربون من أجل الديمقراطية وضد العنصرية.

للفرنسيين مقبرة صغيرة مستقلة، ولليونانيين

أيضًا، وللألمان مقبرة صغيرة بعيدة بحوالى خمسة كيلومترات غرب مقابر الكومنولث، وقريبة من البحر وعلى ربوة عالية، أقيمت فيما بعد، للإيطاليين مقبرة ضخمة مهيبة عالية متأخرة تبعد حوالى عشرة كيلومترات إلى الغرب من مقابر الكومنولث، وهى أيضًا تقع على البحر مباشرة. جوار المقبرة الإيطالية مسجد صغير ومقابر قليلة لعدد من الجنود الليبيين الذين كانوا يحاربون فى صفوف جيوش المحور. عدد قليل أخذ عنوة، المقبرة الإيطالية مستديرة أسطوانية شاهقة كبرج مكسوة جدرانها بالمرمر وداخل الجدران رفات الجنود، وعليها كتبت أسماؤهم بعناية، والمقبرة الألمانية أصغر، بها أربع مقابر جماعية، وبينما يغلب الطابع العصرى على معمار المقبرة الإيطالية الضخمة. يغلب الطابع الفرعونى، الممزوج بالطابع الكنسى على المقبرة الألمانية، حارس المقبرة الألمانية يغلقها دائمًا ويجلس فى بيته القريب، وعلى من يريد زيارتها أن يناديه، حارس المقبرة الإيطالية موجود يقظ طوال الوقت. طويل قوى رغم سنى عمره السبعين. عاصر الحرب أيضًا ويجلس يحكى قصصها الحقيقية ممزوجة بالخرافة.

قصة الحرب الخرافية

(لم يكن لدى روميل غير إناء صغير به ماء، وكذلك كان مونتجمرى. جلس كل منهما فى مكانه وراح ينفخ فى الإناء. ينفخ روميل فتخرج من الإناء الجنود

والبنادق. وينفخ مونتجمرى فيخرج من الإناء الجنود والبنادق التى تلتحم بجنود روميل الذى بدوره ينفخ من جديد فتخرج الدبابات تلحق بجنوده فيستعين مونتجمرى بنفسه الأقوى فتخرج الدبابات الأمريكانية، لكن روميل ينفخ بكل ما أوتى من قوة فتخرج من المياه الطائرات فيقابلها مونتجمرى بنفخة طويلة عميقة وهكذا حتى انقطع نفس روميل الذى كان مريضًا وظل مونتجمرى ينفخ فى الإناء فيخرج الجنود ويخرج السلاح حتى انتصر الإنجليز.. شياطين[1].

هكذا حكى لنا يقال عجوز قصة الحرب ونحن أطفال. لكن أبى قال شيئًا آخر..

(لم أغادر المحطة طوال فترة الحرب، كانت القطارات لا تكف عن نقل الجرحى ومن يمكن إخلاؤه من الموتى، كانت القطارات تتحرك عادة بالليل، وكانت العلمين هى آخر محطة لها فى الصحراء منذ دخول روميل الأراضى المصرية، كان صوت المدافع لا ينقطع بالليل ولا النهار وهجوم الطائرات لا ينقطع أيضًا، ومن البحر كانت تأتى قذائف قوية وكنت أسمع أحيانًا صوت موسيقى القرب وسط كل ذلك الصخب والموت. لعل الصوت كان فى أذنى منذ سمعتهم أول مرة. لقد ماتوا جميعًا كما عرفت.

(بعد المعركة مشيت. تركت نفسى أمشى بين أشلاء القتلى لمسافة بعيدة، بصعوبة كنت أجد

لقدمى مكانًا على الأرض، القتلى يتجاورون، من كل الأمم، جنود المحور مختلطون بالحلفاء، الدم متخثر على الجثث والرمال.. النمل يرعى فى الأجساد الممزقة وآلاف من الأذرع المفصولة والسيقان المقطوعة والأقدام داخل الأحذية والرءوس داخل الخوذات بعيدًا عن الأجساد والجماجم المتفحمة والأجسام المحترقة لجنود كانوا منذ ساعات أو أيام أحياء. اختلطت الكوفيات الحريرية للضباط بالكوفيات العادية، واختلط أصحاب الركب البيض - وهو تعبير كان يطلق على الجنود الجدد قليلى الخبرة بحرب الصحراء - بذوى الركب الحمراء ولم تعد السترات الصوفية تقى أحدًا من البرد لأنهم موتى، قبل المعركة كانت الإسكندرية شبه خالية من أهلها، هاجر السكان إلى محافظة البحيرة حيث أقامت لهم الدولة معسكرات إيواء، وهاجر من لهم أصول ريفية إلى بلادهم .وكانت منهم أمك وأختك - هكذا قال أبى - وكان اليهود فى ذعر فباعوا كثيرًا من ممتلكاتهم بأثمان بخسة وهاجروا إلى فلسطين).

وكانت السنوات منذ دخول إيطاليا الحرب سنوات قلق وصل إلى ذروته بعد تولى روميل قيادة الفيلق الإفريقى، وكانت الغارات الألمانية الإيطالية على الإسكندرية ثقيلة، وقصة انقسام البلاد بين مؤيد لألمانيا ومؤيد لإنجلترا معروفة فى تاريخ مصر الحديث لكن من أغرب الأحداث ذلك الخطاب الذى أرسله قائد منطقة إسكندرية العسكرية إلى وزارة

الحربية يسأل عما يجب عمله حال دخول قوات المحور إلى المدينة. هل يقاوم أم يستسلم؟ عرض الخطاب على وزير الحربية حمدى سيف النصر فلم يرد عليه، لكن قائد منطقة الإسكندرية عاد وأرسل نفس السؤال فأمر وزير الحربية بنقله، لم يكن يدرى قائد المنطقة المأزق الذى سببه لوزيره. فهو إن أجاب بالمقاومة قد يقتله الألمان إذا نجحوا فى احتلال البلاد، وإذا أمر بالاستسلام سيحاكمه الإنجليز. وشاع بالبلاد أن السلطات البريطانية تفكر فى نقل فتيات الأتسا (A.T.C) من المجندات البريطانيات وكن نحو ٥٠٠ فتاة مهمتهن الترفيه عن الجنود، وتفكر جديًا فى تهريبهن إلى الأقصر حتى لا يستمتع بهن الألمان إذا دخلوا البلاد!

لقد تسلم مونتجمرى القيادة فى الخامس من أغسطس ١٩٤٢ وكان من أكبر مشاكله كيف ينزع من وجدان الجنود البريطانيين وحلفاءهم فكرة أن روميل قائد لا يقهر. وواتته الفرصة فى نهاية الشهر حين حاول روميل اختراق الدفاعات البريطانية من منطقة (علم حلفا) لقد استمرت المعركة أسبوعًا بلا نتيجة ولم يستطع روميل اختراق الدفاعات البريطانية لأول مرة، وكانت هذه أول هزيمة حقيقية للمحور تنذر بهزيمة على كل الجبهات، وبدأ مونتجمرى يستعد للمعركة الفاصلة. (كنت فى حاجة أن يهاجمنى والآن أنا الذى سأهاجمه) قال ذلك بعد فشل روميل فى معركة علم حلفا. وفى ليلة الثالث والعشرين من أكتوبر،

وقبل الساعة الثامنة والنصف حيث اندلع القتال كان الجيشان اللذان يواجهان بعضهما يتكونان كالآتى:

مائة وأربعة وسبعون ألف جندى من دول الكومنولث والحلفاء مقابل مائة وثمانية آلاف من الإيطاليين والألمان، ألف ومائة دبابة لدى الحلفاء بينها الدبابات الأمريكية شيرمان وجرانت قوية الدروع فى مقابل ستمائة دبابة لدى المحور. مونتجمرى على رأس جيوشه، وروميل فى ألمانيا للعلاج، ولم يصل إلى ميدان القتال إلا بعد ثلاثة أيام من اندلاعه، تفوق فى طائرات الحلفاء وقرب امدادهم.

لقد أخذ الهجوم مراحل ثلاث. فى الأولى تداعت خطوط المحور الأمامية، وفى الثانية تقدم الحلفاء ساحقين الهجمات المضادة لجيش روميل فاتحين طرقًا فى حقول الألغام الشيطانية التى حملت وما زالت اسم حدائق الشيطان، وفى الثالثة مطاردة قوات المحور الهاربة بعد أن فقدت ثلثى قواتها وخمسمائة دبابة وكميات لا تحصى من العتاد.

لقد بدأت مرحلة المطاردة هذه مع أول نوفمبر، بعد ثمانية أيام من القتال الضارى، مات فيه الإسكتلنديون على كثرتهم، لأنهم كانوا يعزفون، والسودانيون على قلتهم لإنهم كانوا فى جيش لجب! وفى الثامن من نوفمبر حدث الإنزال الأمريكى الأوروبى على شواطئ المغرب والجزائر بقيادة

إيزنهاور، بدأ الزحف من الناحيتين فاستسلمت كل القوات الباقية من جيش روميل الذى استطاع الوصول إلى ألمانيا لكن بعد أن انتهى الوجود الألمانى الإيطالى من إفريقيا.

فى الثامن والعشرين من أكتوبر كتب روميل إلى زوجته:

(ما زال فى وسعنا الصمود. لكن قد نخفق ويكون لهذا نتائج وخيمة).

فى الثانى من نوفمبر كتب إليها:

(قتال ثقيل جدًا لا يدور فى صالحنا. العدو بقواته المتفوقة يخرجنا ببطء من مواقعنا، إنها النهاية، يمكن أن تتصورى شعورى، غارة جوية بعد غارة جوية بعد غارة جوية).

وفى الثالث من نوفمبر كتب:

(بالليل أستلقى مفتوح العينين مجهدًا عقلى فى سبيل إيجاد مخرج لجنودى المساكين من هذه المحنة. إن الموتى محظوظون فلقد انتهى كل شىء بالنسبة إليهم).

لقد شربت رمال العلمين دماء ثلاثة عشر ألف قتيل وجريح من دول الحلفاء، وخمسة وعشرين ألف قتيل وجريح من دول المحور فياله من نهر من الدم جرى على الأرض المهياة من سالف الأزمان للقتل، إن الموتى المحظوظين، جنبًا إلى جنب مع الأحياء، هم الذين أعطوا العلمين أهميتها كمعركة لم ينهزم بعدها

الحلفاء ولم ينتصر المحور والآن لا بد أن العدد الأغلب من الأحياء قد لحق بالموتى، وهؤلاء جميعًا أعطوا المكان أهميته التاريخية. إن الموتى من الهنود والنيوزيلانديين والأفريكان هم فقط الذين لا يزورهم أحد حتى الآن، كانت بلادهم فقيرة أيام الإمبراطورية، وظلت فقيرة بعد أن غابت الشمس عن الأسد البريطانى! مساكين أبناء آسيا وإفريقيا يقاسون الوحدة فى الحياة والموت. ومن فضائل الله أنه أزادهم من نعمة النسيان فظل من عاش منهم باقيًا فى الحياة!!

الرحلة السابعة
هل هى رحلة؟
الإسكندرية/ صورة شخصية

أصوات خفية حبيبة، أصوات أولئك الذين ماتوا، أو أولئك الذين هم بالنسبة إلينا ضائعون مثل الموتى، تتكلم فى أحلامنا أحيانًا، وأحيانًا فى الفكر يسمعها العقل، ومع أصدائها تعود برهة أصوات من قصائد حياتنا الأولى مثل موسيقى بعيدة فى الليل تخبو.

(كفافيس...)

عروس دائمة للبحر

هل كان ذلك الفتى النبيل، الإسكندر تلميذ أرسطو النابه يعلم أنه لا يقيم فقط مدينة تحمل اسمه خالدًا على الزمان، وإنما يقيم عالمًا بأسره وتاريخًا كاملاً. أغلب الظن أنه كان يعرف.. وهو لم يكن معنيًا بالخلود فقط، بل بتغيير الدنيا.

المسافة من جزيرة فاروس - الأنفوشى حاليًا - إلى راقودة - كرموز الآن - يقطعها السائر على قدميه فى أقل من ساعة، ولابد أنه كان يفعل ذلك قبل الميلاد فى وقت أقل أيضًا، ذلك أنه لم تكن هناك بنايات يدور حولها ولا طرق محددة، كانت

الأرض مسطحًا من رمال وماء. لقد وقف الإسكندر بفرسه فى راقودة فرأى آخر نقطة عند البحر - فاروس - فقرر أن يصل بينهما، لكنه مات قبل أن يتم ذلك.

لقد كان بطليموس الأول، وخلفه الثانى، هما اللذان أتما بناء الإسكندرية. لذلك أنا لا أصدق أن الإسكندر الأكبر مدفون فى الإسكندرية، أعلم أن هناك دراسات كثيرة جادة تؤكد دفنه فى مدينته، وأحترم كل هذه الدراسات، وكل المحاولات التى تمت لاكتشاف مقبرته، والتى اشترك فيها علماء كبار وجرسونات أيضًا! أعلم كل ذلك ولا أصدق أن الإسكندر مدفون بالإسكندرية. لقد وضع الإسكندر حجر أساس المدينة العالمية عام ٣٣١ ق.م وأوكل مهمة تخطيطها إلى دنيوكراتيس البارع فى الهندسة وانتهى الأمر عند ذلك.

قام دنيوكراتيس البارع فى الهندسة بتخطيط المدينة مثل رقعة من الشطرنج؛ شوارع مستقيمة من الشمال إلى الجنوب تقطعها شوارع مستقيمة من الشرق إلى الغرب. والعكس صحيح طبعًا وبين هذه الشوارع شارعان كبيران أحدهما من الشمال إلى الجنوب أغلب الدراسات تؤكد أنه شارع النبى دانيال الحالى، والثانى من الشرق إلى الغرب هو طريق كانوب القديمة أو طريق أبى قير حديثًا أو طريق الحرية ثم طريق جمال عبد الناصر الذى نسى

السادات أن يغير اسمه. الشارع الأول الذى يحمل اسم النبى دانيال الآن شارع صغير مريح للأعصاب تكسر مبانيه العتيقة المتوسطة الارتفاع غالبًا حدة ضوء الشمس فتجعله ظليلاً طوال النهار أو على الأقل محتمل الحرارة، وهو شارع به مجموعة من الآثار الرومانية مثل حمامات كوم الدكة القريبة، أو صهريج مسجد النبى دانيال أو آثار البرديسى الواقعة بشارع البرديسى المجاور لسيدى عبد الرازق الوفائى المقابل للنبى دانيال. إذن نعود للنبى دانيال كلما ابتعدنا، ووجب أن نقول إنه ليس بالنبى دانيال المذكور فى التوراة لكنه الشيخ محمد بن دانيال الموصلى أحد شيوخ المذهب الشافعى الذى قدم إلى الإسكندرية فى نهاية القرن الثامن الهجرى واتخذ مسجد الإسكندر - هكذا كان اسم المسجد - مكانًا له يلقى فيه دروسه حتى توفى عام ٨١٠ هـ فحمل المسجد اسمه ونسى الناس اسم الإسكندر. هذه أعجوبة كاملة لأن الدراسات التى قالت بوجود قبر الإسكندر تحت الجامع ثبت عدم صحتها، وأولاد البلد قبل الدراسات بقرون أزالوا اسم الإسكندر غير الموجود من فوق الجامع ووضعوا اسم ابن دانيال الموجود. أما تحور الاسم إلى النبى دانيال فربما لقرب المكان من حى العطارين حيث تجارة اليهود والجاليات الأجنبية والأغلب أن الحس الشعبى لا يفرق مع الوقت بين ولى ونبى.

هذا الشارع شبع حفرًا فى سنوات الستينيات والخمسينيات بسبب جرسون مجنون كان اسمه (استيليوس) كان يونانيًا يزعم أنه عثر على مخطوطات تحدد وجود قبر الإسكندر. وفى أوائل السبعينيات أظن عام ١٩٧٢، أشيع أن شابًا كان يمشى مع خطيبته بالشارع وعند التقاء الشارع بطريق الحرية غارت الأرض وسقطت خطيبته فيها وضاعت. لقد رأيت أنا هذه الحادثة، ورأيت فرق الإنقاذ وهى تحفر الأرض بحثًا عن الفتاة التى ابتلعتها الأرض كان أهل الإسكندرية يخرجون جماعات يحيطون بعمال الإنقاذ فى انتظار العثور على الفتاة، وأعلن عمال الإنقاذ أن الأرض تحت الشارع مليئة بالآثار والغرف والطرق السحرية لقد ضاعت (مرفت) إلى الأبد. هكذا كان اسم الفتاة.

لقد أحيطت الإسكندرية القديمة بسور كبير زال واندثر مع الأيام. سور وقف أمامه أنطيوخوس الرابع ملك سوريا حين أراد غزو مصر عام ١٧٠ - ١٦٨ ق.م ولم يدخل الإسكندرية لكن الذى دخلها كان دقلديانوس. الإمبراطور الرومانى الشهير الذى تفنن فى تعذيب المسيحيين والذى سمى عصره بعصر الشهداء وبإحدى مذابحه بدأ التقويم القبطى لقد استطاع دقلديانوس دخول الإسكندرية التى كانت قد أعلنت الثورة عليه وخلعته من حكم روما، وأعلنت قائد ثورتها لوكيوس دويمتيوس إمبراطورًا ووقف دقلديانوس ثمانية أشهر أمام السور بين عامى ٢٦٥ -

٢٦٦ ميلادية ثم نجح فى دخول المدينة وحولها إلى حمامات دم.

(يقال إن أهل الإسكندرية على طول التاريخ كانت لهم حرفة واحدة رئيسية هى السخرية من حكامهم بقول الشعر والانشغال بمصارعة الديكة لذلك لم يكن هناك صفاء أبدًا بين أهل الإسكندرية وأى من الحكام الذين لم يتوقفوا عن اضطهادهم حتى كاد الشعب يباد).

أنا أصدق هذه المقولة حينما أتذكر أن محمد على باشا تولى أمر البلاد المصرية عام ١٨٠٥ وكان تعداد أهل الإسكندرية ثمانية آلاف، هى التى بلغ تعداد سكانها فى العصر الرومانى إلى ثلاثمائة ألف حر، ونستطيع أن نضيف مثلهم من العبيد.

نعود إلى دقلديانوس هذا لنعرف أن أهل الإسكندرية هم أنفسهم فيما بعد، بعد أن استقرت الأوضاع، ورفع عنهم جزية القمح، التى كانوا مضطرين لدفعها إلى روما، قاموا بتخليد ذكرى دقلديانوس الرهيب بإقامة نصب تذكارى من أجمل ما حفظته لنا المدينة من آثار الا وهو عمود السوارى الذى يقف شامخًا على ربوة السرابيوم بكوم الشقافة برقودة القديمة، أو كرموز الحالية، سكان حى كرموز يتصفون بالجسارة والقوة حتى الآن رغم أن الحى الشعبى العريق عشش فيه الفقر والمخدرات. فى هذا الحى عشت طفولتى وصباى. فى صباى كنت أنظر

إلى عمود السوارى الشامخ مندهشًا لا أعرف عنه أكثر من كونه أثرًا جميلاً. فيما بعد عرفت أن الموقع الذى أقيم فوقه من أهم الآثار وكان فوق نفس الهضبة معبد السرابيوم الذى أسماه العرب قصر الإسكندر، وكان عمود السوارى يتوسط أربعمائة عمود ترفع القصر الذى تهدم، الأعمدة نفسها حملها الجنود أيام صلاح الدين الأيوبى وألقوا بها فى البحر لتحصين الإسكندرية.

الآن من يغطس فى الميناء الشرقية بالإسكندرية يرى هذه الأعمدة الغارقة. أسفل هضبة كوم الشقافة، توجد جبانات أثرية خالية الآن كنا ندخلها فى صبانا باعتبارها مغارات، نحمل فى أيدينا شعلاً من نار على طريقة المستكشفين ونطارد الخفافيش، كان يسكن الهضبة جماعات فقيرة من النوبيين يبيعون الفول السودانى واللب فى القراطيس يجوبون بها شوارع الإسكندرية، وبعض من الغجر الذين كنت أحب رقصهم وغناءهم والحلقان فى أنوفهم والوشم الأخضر على كل جزء عار من أجسادهم. عمود السوارى حقيقة لكن مثل كل حقيقة كبيرة دارت حوله الأساطير. ومن ابرز ما قيل من خرافات أن أكثر من عشرين شخصًا تناولوا غداءهم مرة فوق تاج العمود، أو أن راس (بومبى) موجودة فى جرة فوق تاج العمود، لكن المؤكد أنه جرت محاولة لإقناع كل من لويس الرابع عشر، ومن بعده الخامس عشر، بنقل العمود إلى فرنسا ليكون قاعدة لتمثال كل منهما على التوالى. والحمد لله أن أحدهما لم يقتنع بالفكرة.

عمود السوارى قطعة واحدة من الجرانيت الأحمر طولها ٢٠,٧٥ متر ومساحتها عند القاعدة ٢,٧٠ متر وعند التاج ٢,٣٠ متر قطعت من جبال أسوان ونقلت سليمة إلى الإسكندرية لينقش عليها بالهيروغليفية واليونانية ما يؤكد انه اقيم تخليدًا لذكرى الإمبراطور المتوحش.. أنا لا أصدق. لابد أن أتباع هذا الإمبراطور هم الذين فعلوا ذلك والصقوه بأهل الإسكندرية، لم تكن الإسكندرية تعتبر جزءًا من مصر، كان اليونانيون ومن بعدهم الرومان يقولون عنها الإسكندرية المجاورة لمصر، ولدت من يومها تاريخًا مستقلا، صارت سيدة العصر الهلينى، كان طولها فى بدايتها خمسة كيلو مترات وعرضها حوالى الكيلو متر والنصف طولها ازداد مع الزمن. عرضها لم يزد كثيرًا بسبب بحيرة مريوط التى تضغط على جنوبها، وبحيرة إدكو والصحراء، لذلك مكتوب على الإسكندرية أن تستطيل مع البحر، أن تنام حتى القيامة فى حضن الموج، هى عروس دائم للبحر المتوسط، هكذا أرادتها الطبيعة رغم ما يقذفه بها بنو الإنسان من تلوث وتخبط واستبداد.

حكاية الترعة

من أهم أسباب ازدهار الإسكندرية قديمًا وجود الفنار الشهير، أحد عجائب الدنيا السبع القديمة، الذى شيده المهندس سوستراتوس بن ديكسيانس فى عهد بطليموس الأول لينتهى منه فى عهد بطليموس

فيلادلفوس حوالى عام ٢٨٠ ق.م. لقد كان الفنار يرتفع إلى ١٣٥ مترًا يهدى السفن إلى الميناء، وكان أيضًا يستخدم فى حرق سفن الأعداء بالمرايا الضخمة تعكس حزمًا من أشعة الشمس مركزة عند اللزوم. لقد أباد الزلزال الفنار العجيب.

السبب الثانى المهم لازدهار الإسكندرية قديمًا كان وجود ترعة من المياه العذبة هى ترعة. (شيديا) مكانها الآن سوق شيديا لابد، أو على الأقل مكان جزء منها، كانت الترعة تربط بين النيل والميناء. أى بين الإسكندرية وأعماق القارة الإفريقية.

اندثرت الترعة واضمحل شأن الإسكندرية واحتاجت إلى ترعة أخرى فى العصر الحديث شيدها ألبانى من الأناضول، هو محمد على باشا. هذه الترعة حملت اسم السلطان العثمانى هذه المرة. أقصد بها ترعة المحمودية. أجل. ترعة المحمودية هى سبب ازدهار الإسكندرية فى العصر الحديث. لقد مضى زمن طويل على الإسكندرية وهى مقطوعة الصلة بالقاهرة وإبان العصر التركى والمملوكى كانت قلعة قايتباى التى أقيمت مكان الفنار القديمة تستخدم كسجن ومنفى للخصوم.

لقد صدرت أوامر محمد على باشا السنية ببدء حفر الترعة عام ١٢٣٣هـ - ١٨١٩م وأن تعمق حتى تجرى فيها المياه صيفًا وشتاء، وأمر حكام الجهات

بجمع الفلاحين للعمل والكلام هنا للجبرتى - فكانوا يربطونهم قطارات بالحبال وينزلون بهم فى المراكب ومات الكثيرون منهم من البرد والتعب وكل من سقط أهالوا عليه تراب الحفر ولو فيه روح... يا ساتر يا رب.

لقد انتهت الترعة، وانتهى حفرها عام ١٨٢٨، وبلغ سكان الإسكندرية ستين ألفًا وفى عام ١٨٤٨ بلغوا مائة وثلاثة وأربعين ألفًا. من هذا الإحصاء تعرف ما الذى أضافته الترعة إلى المدينة التى تسلمها محمد على وسكانها لا يزيدون عن الثمانية آلاف.

لقد شاهدت فى صباى ترعة المحمودية هذه وهى عروس جميلة نظيفة تمشى فيها السفن الكبيرة على مهل حاملة بضائع الصعيد والدلتا إلى الميناء وإلى الإسكندرية عمومًا، وكان أكثر ما تحمله القطن والقصب والقمح، واستمعت إلى غناء النوتية العذب، وشاهدت جماعات السمار من الشباب والفتيات فى الأماسى وقبل المغيب وهم ينطلقون فوق الماء فى الفُلك الصغيرة الملونة يمرحون ويتحابون، كانت متنزهًا للفقراء والمحبين الفقراء، كتبت رواية قصيرة هى (ليلة العشق والدم) تجرى مجمل أحداثها على هذه الترعة، كتبتها فيما بعد. لقد صارت الترعة مكانًا كريهًا لما أُلقى فيها من فضلات المصانع، صارت بؤرة للتلوث جنوب الإسكندرية، يقولون إنهم يعيدون تنظيفها الآن، لعل ذلك يكون صحيحًا. انا لم

أجد فى البلاد أمة تتخلص مما لديها من مسطحات مائية مثل أمتى التى برع أهل عصرها الحديث فى ردم أجزاء كبيرة من البحيرات بدءًا من بحيرة مريوط بالإسكندرية حتى بحيرة البردويل فى سيناء. على أى حال، أبناء جيلى من الأحياء الشعبية الجنوبية يحتفظون لهذه الترعة التى أعلت من شأن المدينة بذكريات جميلة. قفزت هذه الذكريات لتستحوذ بأسطورتها على جانب كبير من روايتى، لا أحد ينام فى الإسكندرية، وأكثر منها فى رواية طيور العنبر. الأبرياء واللصوص التى كانت تطارد بحّارة السفن وتسرق بعض بضائعها. مازلت أذكر براعة أولئك اللصوص فى السباحة والغطس لوقت طويل تحت الماء حين يداهمهم البوليس بالرصاص، أجل كانت تحدث معارك حقيقية لم تكن بالنسبة لى ولأصحابى فى صبانا تختلف عن المعارك السينمائية فكنا نجرى بين الفريقين بلا خوف من رصاص، كنا نطلق على اللصوص أسماء الأبطال السينمائيين حميدو وطرزان وغيرهما، كانت السينما هى العالم السحرى الذى أدين له بالكثير من المعارف إلى جانب مكتبة الإسكندرية العريقة، مكتبة البلدية، ومكتبات قصور الثقافة التى أنشأتها الثورة ومكتبات المدارس أيام كانت هناك مدارس ومكتبات.. أحب أن أقف قليلاً عند السينما لكنى أؤجل ذلك حتى أنتهى من الحديث عن الجنوب فى الإسكندرية ما دمت تحدثت عن المحمودية فلا بأس أن أتحدث عن البحر. الأول

ملمح الجنوب الرئيسى والثانى وجه الشمال إلى يوم الدين وقبل أن أخرج من هنا أحب أن أقول إن الترعة سلبتنى العقل والقلب وإننى أقمتها من جديد فى أعمالى. لقد منحتنى أسرارًا للوجود فمنحتها وجودًا ابديًا وأقمت عليها حارسًا للزمان والمكان فى رواية طيور العنبر.

الشمال والجنوب

شمال الإسكندرية منذ نشأتها هو الحى الملكى. تغيرت المسميات والوجوه لكنه ظل حى الصفوة، الملوك والغرباء!

قديمًا كانت المساحة المطلة على الميناء الكبير هى حى القصور الملكية الممتدة حتى (السلسلة). فى هذا الحى الملكى شيدت أروع معالم العاصمة، عاصمة العصر الهلينى، الإسكندرية. فإلى جانب القصور شيدت الحدائق والنافورات والمتاحف ودار الحكمة ومعبد بوسايدون إله البحار ومعبد قيصرون ابن كليوباترا ويوليوس قيصر التعيس الذى قتله أوكتافيوس مكتفيًا بوجود قيصر واحد، هو نفسه. مسكين قيصرون هذا ولد بسبب الفتنة، فتنة أمه ليوليوس قيصر، ومات بسبب الفتنة، فتنة أمه لأنطونيوس وفشلها فى الحرب مع روما.

فى هذا الحى الملكى شيدت أيضًا مكتبة الإسكندرية الشهيرة ودار القضاء، والجيمانزيوم والبانيون ذلك التل الكبير الذى أقامه أهل الإسكندرية

تكريمًا للإله (بان) بحيث يطل من يقف فوقه على المدينة كلها، إن بقايا هذا التل هى ما يعرف بكوم الدكة الآن، تلك التى نصب عليها نابليون مدافعه. والتى كان على سطحها معسكرات قوات (بلوك النظام) قبل الثورة ينطلقون منها لمقاومة المظاهرات، كان من بين هذه القوات عام ١٩٥١م ضابط اسمه سعد الدين وهبة سيأخذ قواته من الجنود لإنهاء إضراب عمال مصنع (سباهى) للنسيج القائم شرق المدينة عند كوبرى صغير على ترعة المحمودية اسمه كوبرى الناموس، سيمضى هذا الضابط الشاب وقته فوق الكوبرى منتظرًا أحداثًا لا تقع سيكتبها فيما بعد فى واحدة من أجمل المسرحيات العربية، مسرحية (كوبرى الناموس) وعلى هذا التل الصناعى، ومع تقدم الأيام سينمو حى شعبى كتب عليه النسيان دائمًا هو حى (كوم الدكة) الذى لا يذكر إلا إذا ذكر سيد درويش سيد الموسيقى وشهيدها غريب. أمر حى كوم الدكة هذا، فالذى يمشى فى طريق الحرية قادمًا من باب شرق سيكون الحى على يساره دائمًا ينفذ إليه من أى زقاق جانبى لكن نادرًا ما يلتفت شخص إلى وجود هذا الحى على اليسار، ليس من المعقول أن يكون خلف هذه العمارات الجميلة تل كبير عليه بيوت متزاحمة فقيرة. والذى يمشى مجاورًا للسكة الحديد لا يدرك أن خلف المشرحة العامة والأبنية الحكومية المختلفة يوجد تل فوقه بيوت مزدحمة هو كوم الدكة. لقد ولدت وعشت

فى الإسكندرية حتى الخامسة والعشرين من عمرى بشكل متصل ولم أدخل هذا الحى غير مرتين أو ثلاثة لزيارة بعض زملاء الدراسة الذين نسيتهم ايضًا الآن.

حى كوم الدكة هو الحد الفاصل بين الشمال والجنوب. بعده يترامى الجنوب بأحيائه الفقيرة كلها الممتدة حتى المحمودية كرموز - راغب - غربال - وتمتد بالطول، تمامًا كالإسكندرية، تشمل مينا البصل وباب الكراستة والقبارى حتى المكس الآن. بعد أن طالت المدينة واتصلت بالصحراء فى الغرب حتى منطقة العامرية، وبالزراعة فى الشرق حتى منطقة ابى قير.

وكما امتد الجنوب بأثر زحف أبناء الريف امتد الشمال بأثر ازدياد الأجانب فى الإسكندرية منذ تولى محمد على باشا ومع ازدهار المدينة المستمر. يقول على مبارك فى الخطط. (ولما كثرت الإفرنج والأغراب فى مدينة الإسكندرية واستوطنوها واستحوذوا على كثير من الفضاء الذى كان بداخل المدينة وضواحيها رغبوا فى سكنى الرمل وهى قرية شرق المدينة، بينها وبين ابى قير، وأكثروا من شراء الأملاك لقلة ثمن الأرض إذ ذاك).

وفى موضع آخر يقول (فى آخر زمن المرحوم سعيد باشا ابتدأ الناس فى سكنى جهة الرمل خارج المناطق العسكرية، فاتسعت المدينة وكثر سكانها

حتى بلغ عددهم سنة ١٨٧٢ ميلادية (٤٣٠ ٢١٢ ٢ نفسًا من ضمنها ٦ ٢١٦ ٤٧ أغراب من ملل مختلفة).

إن أسماء المحطات والشوارع فى الشمال والجنوب تريك إلى أى حد كانت الإسكندرية مدينة كوزموبوليتية. مدينة العالم الحقيقية ابتداء من (باكوس) إلى سوتر (وشوتس) و(جيليمونو بلو) و(ستانلى) و (فيكتوريا) وكامب شيزار وغيرها وغيرها من أسماء الشوارع أيضًا، فى المناطق الشمالية أو فى الجنوبية القديمة وبصفة خاصة منطقة كرموز - رقودة أصل الإسكندرية حيث كنت تجد على رأس كل شارع لافتة تحمل اسمه اليونانى القديم ثم اسمه العربى الحديث..

فى جنوب الإسكندرية يتكدس الفقراء وتتكدس المصانع أيضًا. الشمال والجنوب قسمة ضيزى فى كل الدنيا، الشمال يعيش دائمًا على حساب الجنوب فى كل العالم.

* * *

الثانية عشرة والنصف. مضى الوقت سريعًا منذ أن أوقدت المصباح فى التاسعة وجلست هنا. منذ أن أوقدت المصباح فى التاسعة جاءنى طيف جسدى فى شبابه وذكرنى بغرف مغلقة تلوح فيها العطور، وبمتع عابرة، وكم كانت متعًا جسورة، كم مثلت أمام عينى شوارع لم تعد معروفة، ودور للهو اندثرت وكانت ضاجة بالحركة ومسارح ومقار، كانت لها وجود ذات يوم، جاءنى طيف جسدى فى شبابه وذكرنى بالأحزان أيضًا.. الثانية عشرة والنصف. كيف مضى الوقت سريعًا هكذا. كيف مضت السنوات وولت؟

كفافيس

السينما. السينما

لم ألحق بالأجانب. لحقت بالقليلين منهم وبالكثير من الذكريات يحكيها الكبار عنهم، كان أول اتصال كبير بيني وبينهم من خلال العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ طائرات تلقى بالقنابل على المدينة وغارات ليلية، أقل طبعًا مما جرى فى الحرب العالمية الثانية لكن بالنسبة لطفل صغير مثلى ذلك الوقت كانت تلك هى الحرب، ورأيت الأيام الأخيرة لشوارع نصف البلد وهى مملوءة بالأجانب وبميدان المنشية وهو مركز لتجارة المال وتبديل العملة، كان كل شىء أبيض ونظيفًا فى عينى الصبى القادم من حى كرموز الشعبى حيث كل شىء رمادى، طيور العنبر روايتى تحاول الإمساك بتلك الفترة كما حاولت من قبلها الإمساك بالمدينة تحت الحرب العالمية الثانية فى رواية لا أحد ينام فى الإسكندرية، المدينة فى وجهين مختلفين، وجه الوجود القوى للأجانب ووجه الخروج الدرامى المثير، هما روايتاى المذكورتان على ترتيبهما فى الكتابة والنشر، لا أحد ينام ثم طيور العنبر.

السينما كانت هى المصعد السماوى الذى حملنى إلى عالم الآخر، الأجانب، أكثر من أى شىء أخر.

إن أول عرض سينمائى فى العالم كان عام ١٨٩٥ للأخوين لوميير فى باريس، فى العام نفسه كان أول عرض سينمائى فى مصر فى مدينة الإسكندرية

بمقهى الكوزمو - طبعًا لم يعد له وجود، لا المقهى ولا سينما الكوزمو فيما بعد. من يومها صارت الإسكندرية مدينة السينما الأولى، وفيها كانت أول استوديوهات ومنها خرج أول مخرج مصرى هو محمد بيومى الذى أنشأ استوديو بيومى فى الإسكندرية فى العشرينيات وأخرج عددًا من الأفلام القصيرة، للدكتور محمد القليوبى كتاب مهم عن هذا الموضوع. وكانت سينمات الأحياء الشعبية هى باب الثقافة الكبير لى ولغيرى من أبناء الشعب الفقراء، كنت أدخل السينما كل يوم، وأحيانًا مرتين فى اليوم الواحد، ولم يؤلمنى شىء قدر هدم هذه السينمات واحدة بعد الأخرى منذ السبعينيات فى القرن الماضى، وكانت أول مرة أشاهد فيها فيلمًا فى سن الخامسة، أجل. كنت فى مدرسة (روضة أطفال) فى حى كرموز، وكانت أمى تذهب بى وتتركنى ثم تعود وتأخذنى آخر اليوم، وذات صباح رأيت باب الروضة مفتوحًا فخرجت، وجدت الشارع جميلاً وواسعًا فمشيت خطوات ووجدت زحامًا أمام باب فوقه صور جميلة ملونة والناس تدخل من الباب فدخلت معهم ولم يسألنى أحد شيئًا، ربما لصغر حجمى ذلك الوقت مما لم يلفت انتباه الحارس. وجدت الناس تجلس فجلست أظلم المكان ولم يخف أحد فلم أخف. بدأت الصور تخرج على الشاشة. يا إلهى أى بئر مسحور هذا الذى وقعت فيه. من يومها صرت كل يوم، تذهب بى أمى إلى الروضة وتعود فأخرج أنا إلى

حفلة السينما الصباحية، وتأتى أمى وأكون أنا قد عدت من الحفلة وأقف أمام باب الروضة. هكذا كنت أصغر طفل فى العالم تقريبًا يهرب من المدرسة، حتى جاء يوم أقبلت أمى مبكرًا ولم تجدنى، وكانت كارثة، كنت الطفل الوحيد بعد أطفال ماتوا، وبدا أن أمى يمكن أن تشعل النار فى الروضة ولا أعرف كيف مضى الوقت عليها حتى عدت من السينما. من يومها عينت صبيًا أكبر منى يحرسنى حتى لا أذهب إلى السينما لكن هذا الصبى بدوره كان يأخذ مصروفى نظير أن يتركنى أذهب إلى السينما!

أكثر من ثلاثين سينما شعبية تم هدمها منذ سبعينيات القرن الماضى، سينما مصر فى كرموز وسينما الجمهورية فى راغب، وسينما ستار فى محطة مصر، وسينما كليوباترا فى الفراهدة، وسينما التتويج فى الأنفوشى، وسينما قيس، وسينما ليلى فى باكوس، وسينما كوزمو وركس والشرق فى المنشية، وسينما بارك وماجيستيك والهمبرا وريتس فى محطة الرمل، وسينما الحضرة، وسينما محرم بك وسينما الهلال بالقبارى، وسينما النصر بالدخيلة، وسينما سبورتنج وغيرها.. كنت مثل المجنون يجرى بين السينمات وكلما رأيت فيلمًا، ذهبت أبحث عن الرواية الأجنبية التى أخذ عنها الفيلم. من السينما عرفت هوجو وملفل وديستوفسكى وتولستوى وسارتر وتوماس مان وهمنجواى وسومرست موم وكل كتاب العالم الكبار. ومنها فتنت بالملاحم الإغريقية والدراما الإغريقية.

كنت فى الحادية عشرة من عمرى وأراهن زملائى أن أذكر لهم عناوين مائة وخمسين فيلمًا أجنبيًا، وكنت أجرى بين آلهات التمثيل وآلهته فى السينمات، صوفيا لورين وأودرى هيبورن ومارلين مونرو وأفاجا دنر وبرجيبت باردو وكيم نوفاك وجينا لولو بريجيدا وغيرهن وبيرت لانكستر وكيرك دوجلاس وجون واين وروبرت تايلور وغيرهم وغيرهم وكلهم تسللوا إلى رواياتى فهم عجينة روحى لا يمكن فصلهم عنها.

لو لم أكن روائيًا وكاتبًا للقصة ربما كنت مؤرخًا سينمائيًا، أقول مؤرخًا لا ناقدًا، الحقيقة أننى مندهش من قدرة نقاد السينما على انتقاد أولئك العمالقة من الرجال والنساء. عمالقة التمثيل!!

فى حياة كل منا مع فيلم ما قصة أو أثر ما. وأنا أتوقف كثيرًا عند فيلم سبارتكوس الذى شاهدته فى سينما رويال بالإسكندرية عام ١٩٦١.

تقع سينما رويال فى مكان مسحور تدخل إليه من طريق الحرية. أمامها مباشرة مسرح سيد درويش، أو محمد على سابقًا، أى أنها تقع فى منطقة شديدة الهدوء لا تطل على شارع رئيسى، ولا يذهب إليها إلا رواد المسرح من الخاصة ورواد هذه السينما ذات التاريخ الخاص، كنا فى صبانا نحلم بدخول هذه السينما التى شاع بيننا أنه لا يدخلها إلا من يرتدى بدلك سموكن سوداء فاكتفينا بالحزن لكننا تجرأنا وذهبنا، وكان اليوم عيدًا فى ذلك العام؛ كانت ملابسنا

نظيفة ولكنها لم تكن بدلاً ولم يطردنا أحد. تركونا ندخل ولم يسأل أحد عن هويتنا، رأيت جين سيمونز ذات الوجه الملائكى النحيل الحزين وهى تحكى ضاحكة باكية لكيرك دوجلاس - سبارتكوس كيف هربت من تاجر العبيد السمين الذى فشل فى اللحاق بها، وكان هذا التاجر هو الممثل العظيم بيتر استينوف ورأيت جين سيمونز فى آخر الفيلم وهى ترفع ابن سبارتكوس له وهو مصلوب تقول له إنه - ابنه - سيواصل الكفاح من أجل تحرير العبيد. منذ هذا الوقت لا تضيع منى صورة جين سيمونز ومأساة سبارتكوس وقد تغالبنى دموعى حين أتذكرها. لقد كان فرحنا نحن الصبية لا يقارن ونحن نرى تونى كيرتس يقوم معلنًا أنه سبارتكوس، للورانس أوليفييه القائد الرومانى وإمبراطور روما فيما بعد وهازم سبارتكوس. إذًا هذه الصورة من الفداء والتضحية لا تنسى خاصة أنه بعد أن أعلن تونى كيرتس ذلك ليفدى زعيم الثورة، قام الجنود الأسرى واحدًا إثر الآخر ليلعن أنه سبارتكوس فى مشهد غير مسبوق فى السينما العالمية. لقد ظللنا نحن الصبية نتفاخر بهذا المشهد حتى فرقت بيننا السنون. كنا كأننا الثوار نفدى زعيمًا مجهولاً.

لماذا أثر فينا هذا المشهد كل هذا التأثير؟ هل جاء متسقًا مع الطبيعة السكندرية، أم الطبيعة الإنسانية؟ الحقيقة أنه جاء متسقًا مع الاثنين معًا،

أبناء الإسكندرية ليس فيهم (لوع) هم أكثر أبناء المدن وضوحًا، مدينتهم مفتوحة للضوء والريح ولا شيء يخافون عليه لذلك مثلاً تجد كتاب الإسكندرية الذين يعيشون فى القاهرة لا يكونون أبدًا شلة أو جماعة أدبية، الواحد منهم لا يرى حاجة إلى أية قوة إضافية. إنه لا يحتاج لغير الوضوح، السكندريون يكرهون الحيلة من أى نوع لذلك تشتهر الإسكندرية بأنها أول من يلبى نداء الثورة دائمًا. لقد كانت الإسكندرية هى مدينة مصطفى كامل المفضلة ومدينة عبد الناصر المفضلة أيضًا. هل هذا هو سر إهمالها فيما بعد؟!

والإسكندرية منذ العصور القديمة على رأيها. لقد خالفت الكنيسة السكندرية والكنيسة الرومانية وثبتت الكنيسة السكندرية على رأيها بالطبيعة الإلهية للمسيح وبانتفاء الطبيعة البشرية، وظلت حتى الآن لم تتغير وشاعت فى الدنيا القولة الشهيرة: العالم ضد إثناسيوس، بابا الإسكندرية، وإثناسيوس ضد العالم.. لذلك شهدت الإسكندرية أكثر المذابح، فى إحداها عام ٢٨٤ ميلادية سيق ثمانون ألف سكندرى مسيحى إلى بلدة إسنا بجنوب مصر وقتلوا جميعًا. هذا هو عام الشهداء ومبتدأ التقويم القبطى. ولقد شهد حى رقودة، أكثر المذابح، وهو نفس الحى الذى سيشهد فى الحرب العالمية الثانية أكثر الغارات الألمانية الوحشية على المدينة، لقد شغل ذلك، بل قامت عليه

فى جانب مهم منها رواية (لا أحد ينام فى الإسكندرية) كذلك هو نفس الحى الذى به فرق العوالم والغناء. هو حى الموت والحياة معًا..

إن الحديث عن تاريخ الوطنية فى الإسكندرية طويل، ويكفى أن أذكر لك أنه فى الرابع من مارس عام ١٩٤٦ خرجت مصر كلها فى مظهر حداد على شهداء يوم ٢١ فبراير السابق، ذلك اليوم الشهير الذى فتحت فيه قوات الشرطة كوبرى عباس بالقاهرة وحاصرت الطلاب المتظاهرين بالرصاص فلم يجدوا أمامهم إلا الغرق فى النيل.

تجد هذا المشهد المثير فى فيلم فى بيتنا رجل - المهم أنه فى يوم الحداد ذاك اشتبك شباب الإسكندرية مع القوات الإنجليزية بميدان محطة الرمل حول تمثال سعد زغلول واستشهد من الشباب ثمانية وعشرون وجرح ثلاثمائة وخمسون رغم أن تمثال سعد زغلول يعطى وجهه إلى البحر ويشير إليه قائلاً بشكل ما إن الإسكندرية لا تنفصل عن المتوسط.

* * *

لم اكبح جماح نفسى. تركتها على مطلق سجيتها ومضيت إلى المتع التى تتأرجح بين الواقع والخيال مشيت فى الليل المضيئ وشربت النبيذ القوى لمحبى المتع الشجعان.

(كفافيس)

الملاهى.. النساء

قريبًا من الإسكندرية تم منذ سنوات اكتشاف قرية (ماريا) اليونانية التى كانت مركزًا لصناعة النبيذ توردة إلى الإسكندرية. الآن تمشى من المنتزه أبعد نقطة على الشاطئ شرقًا حتى قصر الملك فاروق برأس التين، أبعد نقطة على الشاطىء غربًا، فلا تجد مكانًا تشرب فيه النبيذ أو البيرة إلا فى الفنادق الكبرى، والمسافة بين فندق رامادا مثلاً بسيدى بشر ومحطة الرمل حيث تجد ذلك فى مكانين أو ثلاثة مسافة طويلة، تزيد على الثمانية كيلو مترات، كانت زمان تعج بالحركة فى الملاهى الليلية المنتشرة على الشاطئ. هذه الملاهى كلها، ومنذ السبعينيات، وشيئًا فشيئًا تحولت إلى مقاه ومطاعم ترفع لافتة (الكحوليات ممنوعة). وبعيدًا عن الكحوليات فإن اختفاء الملاهى نفسها استتبع اختفاء فرق الغناء والرقص الأجنبى التى كانت لها مواسم بالإسكندرية، والملاهى والمراقص والمقاهى قديمًا صنعت عالمًا باهرًا وعجائبيًا من اللحم الأبيض، فكانت الشوارع القريبة من البحر هى ملاذ نساء الليل فى الصباح الباكر، ونادرًا ما كنت تجد أسرة مصرية تسكن فى هذه الشوارع، كانت شوارع الطلاب الأغراب، وبالذات شارعا تانيس وطيبة، وكان أى طالب يستطيع أن ينظر من النافذة فى الصباح الباكر يشير إلى أية امرأة تمشى فى الطريق فتصعد لتنام عنده بقية النهار، كانت هذه الشوارع هى التجارب الأولى للشباب

الريفى الذى جاء يتعلم فى جامعة الإسكندرية، وكانت مقسمة إلى مناطق نفوذ يديرها بلطجية، ولقد رأيت فى تجربة مثيرة ولسنوات، ما تعانيه النساء من هذا الجو، كان أغلب النساء من الأجنبيات الفقيرات، شقر بيض أرمنيات ويونانيات وتركيات وإيطاليات ويهوديات وغيرهن، وفى الستينيات، وبالذات بعد هزيمة ١٩٦٧، وبعد أن بدأ المد الأصولى وبدأ مسلسل الإغلاق للملاهى أو تحويلها لمقاه، بدأت هؤلاء الأجنبيات فى الاختفاء. لا أعرف أين ذهبن فى الحقيقة. لابد أنهن متن!! وظهرت المصريات الضائعات، الفقيرات من الجنوب، أو الفقيرات من أهالى القناة الذين تم تهجيرهن من بلادهن تحت القصف الإسرائيلى، من بورسعيد والإسماعيلية والسويس، نساء لم تتحملن المعسكرات التى أقامتها لهن الدولة أو البيوت الفقيرة التى حشرن فيها فهربن إلى الفضاء السكندرى الرحب. كانت هذه كلها فى نظر البعض شرورًا، لكنها كانت أيضًا متنفسًا بشريًا، الآن لم يختلف الوضع، زاد، لكن فى الخفاء. وأحيانًا عبر الإنترنت. فالإسكندرية مدينة مجنونة، لا ترى إلا بالمجد لكنها لا تتخلى عن الجنون فى أى زمن من الأزمان.

تشهد الإسكندرية الآن حركة تجديد واسعة، بالذات فى الكورنيش والمناطق الشمالية والذى يذهب إليها الآن لابد أنه سيسعد غاية السعادة والمدينة التى لم يحبها الحكام عبر تاريخها وجدت

محافظًا يحبها هو اللواء المحجوب فاسموه المحبوب، والمدهش أن السكندريين يتعاونون معه غاية التعاون، لماذا حقًا يكون ذلك مدهشًا؟ ربما بسبب السنوات الطويلة التى مضت فى خصام بين الشعب وحكامه حتى صارت المدينة إلى يوم قريب بؤرة كبرى للتلوث، حتى صرحت منظمة الصحة العالمية فى أحد تقاريرها أن الإسكندرية تحتاج إلى حملة عالمية للنظافة، كل ذلك يحدث الآن بالحاكم الذى أحبه الشعب السكندرى. لكن الأشياء القديمة التى ضمنت مكانها فى الذاكرة من الصعب أن تعود، حتى اللهجة السكندرية المميزة، الحديث بالجمع دائمًا، قد كادت تختفى إلا من أعداد قليلة جدًا من المسنين. ذلك أن الهجرة الواسعة من شمال وجنوب مصر كلها إلى الإسكندرية تركت أثرها على كل شىء. لقد حدثت حركة تريف كبرى للمدينة لذلك فإن ما يحدث من تجديد فى الإسكندرية الآن له قيمة كبيرة لأنه يغلب المدينة على الريف الزاحف وستسطع من جديد شمس الإسكندرية، ولو فى ثوبها الشتوى، خاصة وأن الأيام القادمة ستشهد افتتاح مكتبة الإسكندرية كما ستصبح منطقة (ابو قير) متحفًا أثريًا وغير ذلك من المشروعات الثقافية. لكن، فليبق الماضى فى الذاكرة ولنمسك بحاضر سكندرى فيه أوجه أخرى من السعادة، وسيجد الترف والجنون والمجون لهم طرقهم فى الوجود.

الرحلة الثامنة
لاروشيل...
أين تذهب طيور المحيط؟

أحب محطات السكك الحديد، ولدت بينها وعشت بينها وركبت قطارات أكثر من أى شخص فى العالم.

أحب السفر بالقطار بالليل والنهار، وأحب النظر فى وجوه المسافرين والتكلم معهم، وأفرح باللقاء على الأرصفة ويحزننى الوداع.

هكذا وصلت إلى محطة سكة حديد لاروشيل، بعد رحلة ممتعة بالقطار من مونبارناس دى باريس، بين الريف والخضرة التى لا تنتهى، لم أشعر أبدا بوحشة فى القطارات إلا مرة واحدة، كان سفرى فيها بين نيويورك وشيكاجو، لم أر شيئا غير العتمة طول الطريق وكان القطار بطيئًا، من قبل سافرت فى رحلة طويلة أيضًا بين موسكو وكييف، وبالليل، لكن الليل الروسى كان أبيض دائمًا، مضاء بالجليد على الجانبين، كانت سفرة نهارية رغم أن الوقت ليل تذكرت فيها ليالى ديستوفسكى البيضاء كثيرًا..

سافرت من باريس إلى روشيل بالنهار، صباحًا، مجرد ثلاث ساعات، الوقت صيف والدنيا حول القطار مفعمة بالمرح، مرح الأضواء وهى تنسكب على الأشجار الخضراء والطيور البيضاء تملأ الحقول.

وصلت لاروشيل، وعلى رصيف المحطة غمرتنى شمس اغسطس. احب الضوء المنسكب من السماء، أترك نفسى له يغسلنى من همومى أسرع من أى شئ آخر، وبسرعة نظرت إلى الاتساع الرائع للمحطة، إلى طرازها القديم، هذه المحطات الكبيرة تحملنى إلى وادى الراحة.

غمرنى التفاؤل، ورأيت قريبًا منى، عند الباب، ثلاث ابتسامات جميلة، صديقى الكاتب جبار ياسين، وزوجته السيدة سلفيان، والسيدة سلفيان دل يوست نائبة المحافظ للشئون الثقافية، كان معى ولداى وائل وإياد، وائل فى الثامنة عشرة وإياد فى السادسة عشرة وهما يعرفان جبار جيدًا، رأياه قبلى وهتفا فرحين بوجوده وخرجنا جميعًا من المحطة سعداء وفى الطريق إلى الشقة بشارع سان جون لم تغب عيناى عن جانبى الطريق القصير.

أعرف فرنسا، لقد أتيت من قبل عشر مرات، أكثرها فى باريس وزرت بوردو وبواتييه وليون وبلوا وفيل نيف سيرلوت. لم يعد يدهشنى النظام فى الشوارع ولا النظافة ولا الرقة فى التعامل ولا الروح

الفنية الرفيعة فى كل شىء، ابتداء من المبانى حتى المقاهى والبارات الصغيرة، لكن وقعت عيناى على الميناء القديم والزوارق الواقعة فى المياه والمقاهى على الرصيف وحركة الزوار الكبيرة، تذكرت على الفور الإسكندرية وبالتحديد منطقة بحرى والأنفوشى، وشممت رائحة هواء الإسكندرية وابتسمت .. هنا مرح أكبر فى الطرقات، فالشباب فى عناق دائم مع الفتيات، وفرق الرقص والموسيقى والممثلين الهواة والحواة تملأ الطرقات إنه الصيف والإجازات، ولاروشيل كما عرفت مدينة يحبها الفرنسيون كثيرًا فى الصيف، لكنى رأيت أضواء كثيرة تلمع فى الفضاء، أضواء تنعكس من كل مكان، لم نكن فى الليل فالوقت كان الثانية بعد الظهر، والنور الغامر للمدينة يأتى من الشمس التى هى فى السماء، فما الذى يعكس كل هذه الأضواء أمام عينى؟ لم أكن فى حاجة إلى وقت طويل لأعرف أنها أجساد الفتيات والنساء.. أدركت أن الطريق مفتوح إلى النهاية على الأقل بالنسبة لولدىَّ ونظرت إليهما فوجدتهما يبتسمان فى خجل. قلت هو اليوم والغد على الأكثر وسوف يتركاننى وحدى!

* * *

كل يوم فى الصباح أقف على حافة الميناء القديم أشرب هواء الصباح. أرى على يمينى القلعة فأتذكر قلعة قايتباى بالأنفوشى بالإسكندرية، وأرى الزوارق

فأتذكر زوارق الإسكندرية، هنا زوارق عصرية وآلية، لكن الزوارق البدائية لا تزال تحتفظ بدهشتها، وأشم رائحة شباك الصيد رغم أنه لا توجد شباك للصيد، وأدور حول الميناء فأصل إلى الناحية الأخرى وأمشى كثيرًا حتى أكاد أصل إلى ميناء المينيم وأعود بين الهواء النقى والخضرة فى كل مكان فأجد المقاهى والمطاعم قد انتهت من فرش الأرصفة الواسعة بالمقاهد وأجد الباعة قد نصبوا أماكنهم وفردوا بضائعهم للسياح وفرق الموسيقى احتلت الميادين الصغيرة والرسامين احتلوا الرصيف العريض المجاور للميناء. أصل إلى البولا نجيرى القريب اشترى قطعة خبز بالزبيب، لا أستطيع أن أقاوم الحلوى الفرنسية. أفسدت الريجيم الذى كنت قد بدأته فى مصر، وفقدت بسببه ثمانية عشر كيلو جرامًا. ازداد وزنى وعاد إليه ما فقدته فى مصر.

أمر بعد ذلك من تحت الساعة الكبرى، لوجراند أورلوج وانحرف يسارًا إلى مقهى المارين، يبدأ يوم عملى فى الكتابة. آخذ مكانًا فى الركن البعيد الهادئ بالداخل وأجلس، لم أتسرع فى اكتشاف لاروشيل. إنها مدينة صغيرة مفتوحة للضوء والريح، تعلن أسرارها بسهولة. فى الثانية عشرة أغادر المقهى إلى البيت القريب. لا ألتفت الآن لحركة السياح، ولا فرق الموسيقى والألعاب، أريد أن أوقظ ولدىَّ، اللذين اكتشفا بسرعة أماكن السهر، أجهز لهما طعام الإفطار، أفعل ذلك دائمًا فى الصيف فى الإسكندرية،

ذلك يسعدنى جدًا. لقد اصطحبتهما معى من القاهرة، رغم التكلفة الكبيرة لذلك، أردت أن أحدث فيهما صدمة المعرفة، فالحياة فى مصر الآن تغرى بالكسل، الشباب يتنفس الإحباط مع الهواء. المدارس والجامعات لا تقدم معرفة حقيقية، وفرص العمل بعد سنوات التعليم الطويلة قليلة، ولم يعد أ مام الشباب غير اللهو المجانى، والضحك بلا معنى، أو السقوط فى يد الإرهاب، خاصة فى الريف، حيث يجد فى البداية من يقدم إليه العمل والمكان والزوجة ثم السلاح.. إنه جيل مسكين يرى كل الطرق مسدودة أمامه، لا يفلت منه إلا القليل بمساعدة العائلات أو بالسفر إلى الخارج وهو صعب، والسفر إلى الخليج لم يعد فرصة لأحد بعد حرب تحرير الكويت، لم تعد فرص العمل كثيرة فى الخليج، والمصريون لا يعاملون هناك بالتقدير المناسب، دائمًا مذلون مهانون أبناء الفراعنة فى الخليج!!

أردت أن يرى ولداى فرنسا، ليتعلما فيما بعد اللغة الفرنسية، أو يعرفا قيمة أن يعرف الإنسان لغة أخرى، فيتقنا الإنجليزية، وليريا الدقة والنظام وقيمة التقدم العلمى، لأبث فيهما على الإجمال حب المعرفة، وليعرفا أن هناك دائمًا فى الحياة أملا، وبابًا للسعادة رغم أن الكثيرين من أصدقائى حذرونى من مغبة أن يحدث العكس حيث يقارنون بين أوضاع فرنسا

وأوضاع مصر، لكنى راهنت على فكرتى ولن يضيرنى إذا خسرت الرهان إلا بعض المال قد ضيعته، ومنذ متى أحتفظ أنا بالمال أو أحبه؟!

* * *

قال لى الرجل العجوز فى مصر

اننى الآن اعيش فى بيت بلا سقف

وتركنى ومضى

لم أفهم ماذا يقصد العجوز

عرفت بعد ذلك انه فقد من قبل زوجته.

عرفت لماذا أنا بردان دائمًا، رغم أننى فى الربيع، وعلى غير موعد، قابلت المرأة التى أنتظرها. كنت أزور إحدى صديقاتى فى عملها لأول مرة وكانت هى هناك. قدمتها لى قائلة: مدام «م»، صديقتى وزميلتى، تعمل فى المكتب المجاور، وسكت، لم أرد، ارتدت روحى عشرين سنة وأنا أرى السيدة «م» تبتسم. وخرج الكلام من فمى سريعًا، كلام قد حبس طويلاً جدًا جدًا. قلت لا ياسيدتى أنا أعرفك منذ عشرين سنة، أمضيت معك شهرًا كاملاً فى إحدى الدورات الثقافية التى كانت تتعلق ببرنامج الأمم المتحدة لتنظيم الأسرة فى مصر، ليس لى أبدًا أية علاقة بتنظيم الأسرة، لكنهم فى وزارة الثقافة قالوا لى أن أشارك فى الدورة لمجرد معرفتى بالإنجليزية، وطوال شهر كامل كان عملى فيه أن أجلس مستمعًا

للمحاضرات شاردًا فى أشياء أخرى، منتظرًا آخر النهار حين يعطون كل منا عشرة جنيهات مكافأة، وعشرة جنيهات كانت شيئًا كبيرًا جدًا ذلك الوقت، وفى كل يوم فهذا شئ رائع، ومتخيلاً نفسى وأنا أذهب فى الليل أبددها فى فندق هيلتون، على البيرة والبيتزا وأعزم أيضًا اصدقائى، فقد كانت تكلفة الشخص لا تتجاوز الجنيه والنصف، وضحكنا، وقلت لها كان هناك عمل آخر لى هو مراقبتك طوال الوقت عيناى كانت دائمًا معلقتين بك، بابتسامتك التى تهتز لها الدنيا بعينيك الخضراوين، بلثغة لسانك الخفيفة فى حرف الراء، بتكاسلك فى الكلام، إلا أنى كنت أراك مخطوبة يأتى خطيبك لاصطحابك كل يوم، وأرى سعادتك به، وكنت أنا متزوجًا من التى أحبها ولا أريد أن أهدم بيتى، كان واضحًا لى صعوبة العلاقة معك فسكت، رأيتك بعد ذلك فى الشوارع أكثر من مرة، رأيتك دائمًا غير سعيدة، وفى معظم الأحيان نحيلة فقدت كثيرًا من فرحك وبهجتك ثم اختفيت لخمس عشرة سنة من الفضاء.

ومن البيت أكملنا الحديث بالتليفون فى البداية، كنت على يقين بأنى أسعدها، فامرأة تجد رجلا يتذكرها منذ عشرين سنة لا بد تسعد به .. وتفجرت من حولى ينابيع البهجة وحملتنى الغيمة البيضاء إلى السماء، وعاد المسجل يعمل ويبث الأغانى العاطفية، وتلبستنى قوة جبارة على العمل ثمانى عشرة ساعة فى اليوم، ما بين قراءة وكتابة وأحاديث معها وخرجنا

إلى المطاعم والأوبرا نحضر حفلات الباليه التى تحلق فيها الفراشات مع الضوء ثم ينتهى كل شئ إلى الصمت. سافرت إلى أمريكا وعادت بعد شهر أفاقت فيه من الحلم. أن تتغير حياتها الآن أمر صعب. لقد جعلها زوجها السابق تكره كل رجال العالم، وأحبت ولديها وعاشت لهما، وهى لا تستطيع أن تهدم هذا العش، وكنت أتوقع ذلك، فالذى يذهب إلى أمريكا لا يعود أبدًا كما كان، لم أنتظر أن تقدم لى أى مبررات مقنعة أو غير مقنعة، كنت أعرف أن قليلات هن من يستطعن أن يكن مثل أنا كارنينا، أو مدام بوفارى فى مصر، وكنت أعرف أنها من النوع شديد الترتيب والنظام، لقد أدخلتها فجأة منطقة الحلم، لكنها أفاقت فى أمريكا. إ نها امرأة عملية لا تخشى حتى الوحدة، قلت يكفى أنها أعادت السقف إلى بيتى ولو لبعض الوقت. كانت قصة، وعاده قصة، ولاروشيل ستغسل أحزانى. إننى على يقين من أن هناك ناديًا سريًا يدخله أناس منذورون لعذاب غير مبرر، ودائمًا كنت مستعدًا لدخوله، وأتيت لاروشيل أحمل جرحين وسألت نفسى وأنا أرى طيور البحر تختفى من فوق المحيط فى المساء، كيف حقًا لم أعرف الإجابة على هذا السؤال، أين تذهب طيور البحر فى المساء؟ كنت فى صباى أراها فوق شاطئ المكس بيضاء عفية، ولا أراها فى الليل، والبحر المتوسط ممتد أمامنا إلى مالا نهاية، كما يمتد الآن المحيط، فأين حقًا تذهب

هذه الطيور، هذا السؤال القديم يقفز الآن إلى قلبى فى لاروشيل..

* * *

على باب نيويورك يوجد تمثال الحرية

كان مقررًا أن يوضع هذا التمثال

على قناة السويس المصرية

أخذته أمريكا..

قلت لنفسى ربما لهذا السبب

أرى النسخة الأخرى

وسط نهر السين فى باريس

دائمًا حزينة..

لم أحب شقة شارع سان جون. كانت ضد لاروشيل. لاروشيل مفتوحة على أفق من الضوء. الشقة مغلقة على كوابيس قديمة. كانت أربعة ستوديوهات صغيرة. فى كل واحد نزيل. وكنت أنا وولداى فى أكبرها. وبين الاستوديوهات صالة كبيرة بها تليفزيون ومقاعد. والبيت كله جزء من مدرسة قديمة، والسلم المفضى إلى الدور الثانى حيث الشقة خشبى قديم يئن تحت الأقدام، وخلف الشقة فناء المدرسة يصدر هسيسًا غريبًا بالليل، والثلاثة الآخرون الذين يشغلون الاستوديوهات الأخرى شباب حزين بائس: شاب مغربى شارد الذهن دائمًا يفكر فى صعوبة الحياة المغربية التى تنتظره، الفقر والبطالة،

وينوى السفر إلى ألمانيا يبحث عن حياة جديدة، والفتاة مثله، لكن كان فيها كثير من الملامح المصرية و يوم غادر الشقة بعد انتهاء إقامتها - كانا مقيمين وفقًا لبرنامج التوأمة بين لاروشيل وبلدة الصويرة المغربية لثلاثة أشهر - يوم رحيلهما سبق الشاب الفتاة إلى الرحيل بيومين، ظلت فيهما الفتاة تبكى كثيرًا ورأيت الشاب قبل رحيله وهو يودعنى كأنما هو قادم من عاصفة ترابية، وحين رحلت الفتاة سألتها هل هي عائدة إلى المغرب قالت لا سأذهب إلى بوردو، سألتها هى تعرفين أحدًا فى بوردو قالت: لا، لكنى سأبحث عن بيت للشباب وأحاول أن أجد لنفسى حياة هناك. كانت أصغر من العذاب الذى ينتظرها، لكنه عالمنا العربى، لم يعد المكان اللائق بأبنائه.

الفتاة الفرنسية كانت أكثر مأساوية.. نحيلة جدًا، تبدأ إفطارها فى التاسعة صباحًا وتنتهى منه فى الثانية ظهرًا، أجل، وبين الإفطار تهرول ما بين المطبخ والحمام لتفرغ ما أكلته ثم تعود تأكل من جديد، كانت تثير صخبًا كبيرًا وهى تتحرك مسرعة، وبعد الثانية تخرج إلى عملها، ممثلة فى إحدى الفرق المسرحية، وتعود بالليل تبكى من المعاملة الغليظة للمخرج معها، وتأكل وتهرول بين المطبخ والحمام تفرغ ما أكلته، ثم تدخل لتنام حين ينتصف الليل، متعبة جدًا وشبه ضائعة. لذلك لم يكن غريبًا أن تمتلئ الشقة بالليل بالكوابيس، رأيت كوابيس أكثر مما

رأيت فى حياتى، وحولت الأمر إلى شىء مضحك ورحت أنتبه بالنهار إلى لا روشيل، وصرت أعود إلى الشقة فى أوقات قليلة، وأحببت الكتابة فى مقهى المارين، ونمت بينى وبين جون بيير ذى الوجه اللاتينى وإريك ذى الوجه الفرنسى مودة طيبة، لكن اللغة الفرنسية لم تكن تسعفنى، إنهما يتكلمان بسرعة كبيرة كما يعملان بسرعة كبيرة، ورحت أكتشف متاحف لاروشيل وباراتها. أحببت بار الجينيت Guig-nette بار قديم كان الصيادون يرتادونه فى الماضى حيث كان الصيد بسيطًا غير آلى، بار يحمل رائحة التاريخ، مناضده براميل قديمة، ومقاعده خشب شديد القدم وهو دائمًا مفعم الحيوية، حيوية الشباب والفتيات، والغناء والمرح والقبلات .. فى متحف لاروشيل الصغير وقفت كثيرًا عند لوحة فتيات لاروشيل التى تصور نساء لاروشيل وهن يدافعن عن المدينة فى العصور الوسطى لكنى لم أخف منهن، كن يبتسمن حولى فى كل مكان. أتكلم معهن فيحتملن لغتى الفرنسية الركيكة.. وفى إحدى المرات دخلت أحد المحلات أشترى ملابس.. تحدثت بالفرنسية. ابتسمت الفتاة وقالت إنها آسفة لأنها لم تفهم ماذا أريد فابتسمت وقلت لها وأنا أيضًا لم أفهم ماذا قلت، وضحكنا واشتريت وباعت!!

نساء لاروشيل مثل شمسها وهوائها.

سافر ولداى بعد شهر صنعًا فيه قصصًا سيحكيانها كثيرًا لأصحابها، وربما يكتبانها هما يومًا وعدت إلى لاروشيل بعد وداعها فى مطار أورلى لانتقل من شقة سان جون إلى شقة أخرى بحى لاميرىّ La Murille وكان سبتمبر قد دخل على المدينة ومضت منه عشرة أيام.

* * *

المظاهرات فى مصر ممنوعة دائمًا

وكنت فى الستينيات أحول الرحلة المدرسية

إلى مظاهر صامتة مع زملائى الطلاب

كنا نمشى فى الشوارع والحدائق

نرفع أذرعنا ونفتح افواهنا على آخرها

بلا كلام

المدهش أننا كنا نعود آخر النهار متعبين

وتقع بيننا إصابات.

الجو المفعم بالحرية من حولى يقلب أمامى فى صفحات التاريخ والشقة الجديدة بالحى الجديد بدت لى إنسانية، ليس معى فيها غير شاب جزائرى موسيقى جميل مالبث أن غادرها إلى شقة أخرى وصرت وحدى. فى البداية خفت من الهدوء الشديد للحى، لكن الليلة الأولى مضت بلا كوابيس، وكذلك الثانية ومابعدها وبدأت أسعد بالشقة. بالأشياء الصغيرة فيها مثل الغسالة، التى لم تتوافر فى الشقة

السابقة فكنت مضطرًا للذهاب إلى مغسلة عمومية. كانت المغسلة العمومية فرصة أن أتحدث مع نساء وقت انتظارنا لانتهاء الغسيل والتجفيف، لكن أهم ما تحقق من حديث كان مع شاب هندى يتحدث الإنجليزية راح يكلمنى عن الاستعمار الإنجليزى زمان فى مصر والهند!

وجدت أن النهار طويل جدًا الآن، أنا لا أستطيع الابتعاد عن مصر أكثر من أسبوعين، الآن صار النهار طويلاً بعد سفر ولدىَّ ولأن المواصلات تنتهى فى الثامنة مساء فكنت أعود إلى الشقة مبكرًا، ليس من المعقول أن أسهر كل ليلة في المدينة وأعود فى تاكسى ثم إن وجود تاكسى بعد العاشرة بالليل أمر صعب، ذهبت إلى مدرسة مجانية لتعليم اللغة الفرنسية، رحت أقضى فيها تسع ساعات بالأسبوع مع شباب مفعم بالحيوية من روسيا وإنجلترا وتايوان والمغرب والبرازيل وأستراليا وأمريكا وإسبانيا. صرت تلميذا حقيقيًا يشاغب المدرسة فى الفصل وتندهش التلميذات والتلاميذ من قفشاتى، كانت المَّدرسة طويلة جدًا، أطول منى، وكان هذا شيئًا مدهشًا جدًا لى فى البداية، كنت أتخيل أنها ستقع فوقى أثناء الدرس، لكنها لم تقع، وكانت دائمًا مفعمة بالحيوية والطاقة، لكنى لم أتقدم أبدًا فى اللغة الفرنسية، إنها لغة شديدة الدقة، بدائية، تسمى السبعين ستين وعشرة، والثمانين أربع عشرينات. إ نها لغة تشخيصية، بعيدة عن التجريد، ثم إنها لغة

مدللة، بها كثير من الضمائر، وحركة التقديم والتأخير فيها لا تنتهى، واللسان الفرنسى مولع بأكل الحروف وما أكثر الحروف التى لا تنطق فى اللغة الفرنسية، فات الأوان. إنها لغة تحتاج إلى الشباب والشباب لا يعود مهما بدا أنى أمتلئ بالطاقة والحيوية، ولقد ارتكبت كوارث بما يكفى أثناء الكلام، وتحول غلاف الكتاب إلى زنزانة، كوفرتير إلى كوفراج، والخوف إلى قضيب، لابير إلى لوبير وهكذا ظل باب اللغة مفتوحًا على الخطأ، لكن الجميع كانوا صبورين معى ويشجعوننى، لكن ماذا يفعل التشجيع فى راس متعب.

* * *

رأيت السحب السوداء تركض تحت سماء لاروشيل، إنه الخريف. قفزت الإسكندرية مع الحزن. الخريف مفتوح على الحزن معى دائمًا. الحزن يرتاح على المدن الساحلية، لكن المتوسط يختلف عن المحيط. فى المتوسط أنت تقف على تاريخ، فى المحيط أنت تقف فى زمن غامض، زمن لم يخلق فيه الله الإنسان بعد. هواء المتوسط يدفعك إلى الحركة، إلى اختراق ما هو عادى، إلى النزق، هواء المحيط يشعرك بالخوف، يبدو كمصير غامض يحملك إلى هوة، والنور الآن فى لاروشيل لا ينقطع طوال النهار الطويل جدًا، النور الآن مثل زجاج شفاف تجرى عليه مياه بلا لون. كل شىء الآن ينذر بالفراق

فى لاروشيل. السياح يرحلون، الفرق الموسيقية والفنانون يرحلون، لكن المدينة لا تتسع. تصبح أضيق. تدخل فى الصمت، على الأقل خمسة أيام فى الأسبوع حتى يعود إليها فى الويك إند زوارها، شوارع لاروشيل صغيرة ضيقة، دائمًا على الجانبين بواكى فى البنايات القديمة ذلك كله لم أره مع زحام الناس، كانت دائما تبدو أوسع. الآن أمشى فى سراديب هادئة، نظيفة لكنها سراديب، أمشى فى العصور الوسطى حتى أصل إلى الميناء أو بلاس فردان وتزداد الحركة. أحب الخلاء لكنى أحب الناس أكثر، إن طيور البحر لم تعد كثيرة كما كانت فى الصيف. لعلها هاجرت تبحث عن الدفء. تقلب الجو فى لاروشيل ولم تعد هناك أجساد تعكس أضواء الشمس ولا زحام على محلات الجلاس وظهرت السترات الشتوية، وبدأ الناس يتحدثون عن العواصف، وعن العاصفة الجبارة التى جرت منذ عامين وأطاحت بالأشجار والأبقار والمبانى والناس. لكنى أحب المطر، أحب أن أخرج بعد أن ينقطع المطر. كان المطر ينقطع فى الإسكندرية فأخرج مجنونًا أركض ما بين محطة الرمل وسيدى جابر ينعشنى الهواء الذى يخافه الناس وأمشى بين رذاذ البحر الذى يبتعد عنه الجميع وأمر على جدران البيوت بيدى أتلذذ ببرودتها، كنت أجد الدفء دائمًا فى الهواء الطلق لذلك حافظت فى لاروشيل على نفس الملابس الصيفية فقد أضفت فانلة داخلية تحت القميص

نصف الكم، واظبت على الكتابة الصباحية فى مقهى المارين، ارتحت إلى المكان الذى يقع على الميناء وإلى المعاملة الطيبة للجرسون جون بيير وزميله إريك، إننى أكتب حلقات للتلفزيون المصرى. لا أستطيع كتابة رواية خارج البيت. ثم ملأ بن لادن الفضاء.. بن لادن هو العاصفة التى يتحدث عنها الجميع.

* * *

عندما رايت مركز التجارة العالمى يشتعل أمامى فى التليفزيون ثم يسقط، عندما رايت البنتاجون يحترق، تصورت أنه فيلم أمريكى مثل فيلم يوم الاستقلال. هل كان هذا الفيلم نبوءة بما جرى - بعد لحظات استوعبت الكلام الفرنسى. إنها حقيقة وليست سينما. فى السينما يخرج المشاهد مرتاحًا لقوة أمريكا وعلى الأكثر مندهشًا، وإذا كان يتمتع ببعض العقل لن يصدق الفيلم الأمريكى. لكن هذه الحقيقة التى جرت لا تترك الإنسان مرتاحًا، وبالطبع لا يمكن تكذيبها. والدهشة سرعان ما تختفى مع تقدم الأيام. هناك دهشات أخرى من كوارث أخرى، كارثة انفجار مصنع الأسمدة فى تولوز، كوارث إسرائيل فى فلسطين، كارثة الرد الأمريكى على بن لادن، أسف على لا أحد.. للأسف الأمريكان الآن يضربون لا أحد. لكنهم يقتلون شعبًا كاملاً بأطفاله ورجاله ونسائه وعجائزه هو الشعب الأفغانى المسكين

الذى صنعت أمريكا كل مآسيه منذ تشجيعها للحركات الأصولية هناك ورعايتها ومدها بالسلاح والمال. أمريكا صنعت الإرهاب الذى يحمل اسم الإسلام، وهى الآن تدفع الثمن، وتغسل عارها بقتل شعب كامل بعد أن أوصلته إلى أقصى حالة بدائية يمكن أن يصل إليها البشر خلال ثلاثين سنة من الدعم الأمريكى للإرهاب.

اشتعل الجو الإعلامى حولى فى نقاشات كثيرة عن الإسلام والحركات الإسلامية، لم أتابع جيدًا بسبب اللغة، لكنى تابعت حركة المشتركين فى النقاش. فى البداية كثير من الحركات بالأيدى وارتفاع فى الأصوات. شيئًا فشيئًا ظللت الحكمة الجميع. صار الكلام كأنما هو عن مشكلة نظرية. لقد بدأت أمريكا فى ضرب شعب متخلف. هذا لا يهم أحدًا فى الغرب. وهذه هى مشكلة الغرب، إن موت الشعوب الفقيرة لا يصنع مأساة عند الكثيرين هنا، فى الغرب، كما يفعل ذلك موت طفل فى دولة متحضرة. هذه هى المأساة الحقيقية. الغرب يتعامل مع الشعوب العربية والإسلامية من خلال الحكومات. لا يعرف الشعوب. لا يقرأ أدبها وإنتاجها الثقافى الشعبى، والحكومات العربية والإسلامية بدورها تابعة للغرب رغم ما يبدو من عدائها له فى بعض الدول. على الغرب الآن أن ينتظرإلى الشرق نظرة ثقافية، لا نظرة سياسية. هنا شعوب تبنى حضارتها الجديدة وإن فى الكتب، إن الرد الحقيقى على الإرهاب هو أن يحول الإعلام

الغربى والمؤسسات الثقافيه الغربيه اتجاهه إلى معرفة الإنتاج الثقافى الشرقى، هو فى مساعدة الحركات الديمقراطية الصاعدة أن تصل إلى الحكم، لا فى تدعيم الحكومات الديكتاتورية ثم ضرب شعوبها عند أول خلاف. لكن الغرب، بقيادة أمريكا، لن يفعل ذلك على الأقل فى القريب العاجل سيظل يدعم دكتاتوريات الشرق ثم يضرب الشعوب. إنها مأساة حقيقية. وجاءنى الهاتف من مصر يسألنى هل لمست تغييراً ما فى المعاملة بين الفرنسيين. قلت الحقيقة أن ذلك لم يحدث أبداً. رغم أن الفرنسيين وقفوا حداداً على ضحايا الانفجار فى أمريكا، إنهم الآن يذيعون فى التليفزيون صور الضحايا من أفغانستان وفلسطين. صور كفيلة بأن تهز العالم كله، لكن العالم لا يهتز، العالم مشغول بقصة الشربون، والحرب الكيميائية التى هى اختراع شيطانى فى لحظة مناسبة لتنفيذ سياسة الانتقام من الشرق.

* * *

ريموند بوزيير، نويل فافرييه، جوسيان دى جيسيس، سيرج فيلينس، رينيه كلود، موسى ساخو. أسماء رائعة لكُتّاب وفنانين قابلتهم. ريموند صاحب الأسلوب القوى فى الرواية المصرية، قرأت بعض صفحات من روايته القصيرة (الضيعة الصغيرة) القراءة عندى أسهل من الكلام. هناك شخص آخر يتكلم، وبالطبع أسهل جداً من الكتابة فهناك شخص

آخر أيضًا يكتب ويتحمل مشقة اللغة. أى لغة فى العالم، إن عذاب اللغة لا حدود له، إنها سجن جميل، الخروج منه بلا منطق أو معرفة يفضى إلى كارثة تبدأ بكوارثى أنا الصغيرة، إلى كارثة دولة كالجزائر، يحاربون بعضهم باسم الإسلام ولا يعرفون اللغة العربية. لم يدخلوا سجنها بعد. أسلوب ريموند قوى محمل بالشعر والعنف، عصرى يجرى على إيقاع عميق وعريض. فى ريموند رأيت نوعًا من الناس كنت أسمع عنه ولا أراه. الذى يعيش كما يكتب. فى المنطقة الصادقة من الفكر والسلوك شيوعى متفائل وقوى وصريح وجارح، نويل فافربيه نموذ ج ثان للصرامة والجرأة والشجاعة لو لم يكتب هو مذكراته (الصحراء فى السحر Le desert. A' laube لكتبتها أنا عنه. لو كان نويل عربيًا لتمنيت أن أكتب تجربته. تجربة خارج الزمن.

شاعر ومقاتل يترك الجيش الفرنسى فى الخمسينات ويحمل الجريح الجزائرى ويصعد به إلى الجبال ويعيش مع ثوار الجزائر ويحكم عليه بالإعدام مرتين ويرفع عنه الحكم حين تتسع حركة المثقفين الفرنسيين تطالب بالخروج من الجزائر ويدور فى المنافى من تونس إلى الولايات المتحدة إلى البوسنة إلى قريته الصغيرة (أجروفى) التى مشيت معه فى دروبها يحكى لى ما تبقى من قصص الاحتلال النازى ومقاومة أهل القرية.

نويل الذى تجاوز السبعين الآن يذكرنى دائمًا بالشباب عندما ينظر لى بعينيه اللامعتين يبدو لى كأنما هو الدهشة الطفولية مجسمة فى ضوء لامع وسط الليل.

جوسيان دى جيسيس شاعرة تحب مصر والعرب. لديها دائمًا سجائر جزائرية ومصرية إنها امرأة سعيدة بالوقت والفراغ. بريئة إلى درجة أنها حين أرادت أن تروح عنى أخذتنى إلى نادى بنج بونج خاص بالشيوخ، كانت ساعات ممتعة وأنا أرى سيقانًا رفيعة تحمل سبعين سنة وأكثر فوقها وترقص.. ثم جاءتنى إفريقيا مع الرسام الشاب موسى ساخو. فى بيت ريموند التقيت بالممثل والرسام رينيه كلود. رجل هادئ يبدو دائمًا وقد فعل ما كان يجب عليه أن يؤديه، وفى بيت ريموند التقيت بموسى ساخو الذى حمل لى أفريقيا. سنغالى مسلم لا يشرب الخمر، مولع بالأطفال ويرسم لهم، ولنا، لوحاته مفعمة بالبهجة عيون لا معة وسط وجوه سوداء محمولة على أعناق طويلة جدًا كأنما تعلن عن وجودها البرئ فى العالم. وجوه تريد أن ترى العالم من نقطة سامية. براويز لوحاته من خشب قديم. خشب الأبواب والشبابيك القديمة، ليست المعاصرة تطل من بين الأصالة، لكنها روح أفريقيا الوثابة تحمل تاريخها معها، الإفريقيون سعداء حتى بين الخرائب. اختلفت لاروشيل حين التقيت بفنانيها وكُتّابها. لم تعد مجرد

مدينة صيفية يمرح فيها السياح ولا شوارع قديمة تحملك إلى زمن مريح، صارت بردًا وسلامًا على إبراهيم.

* * *

مصر الآن تقترب منى. دفعت إلى بأربعة مصريين هم كل المصريين الذين فى لاروشيل. أربعة فقط، ثلاثة منهم أصدقاء والرابع بعيد، كان لقائى الأول مع الرابع. شاب سكندرى رآنى فى السوبر ماركت فعرفنى. أنا الكاتب الذى ظهرت صورته فى الصحف كان قد سبق له والتقى مع ولدى، دعانى إلى بيته لغداء خفيف. هناك ناقشنى كثيرًا. كانت كل المناقشة تدور حول لماذا دائمًا لا يتحد المصريون فى الغربة. لماذا يختلفون،لماذا يضيع بعضهم فى رياح الحضارة الغربية السريعة، وعرفت من الثلاثة الآخرين أنه بدد ثروته. هو أيضًا قال لى ذلك. أخذ رقم تليفونى فى لاروشيل ولم يترك لى رقم تليفونه كما قال. كنت أمر على بيته فأراه مغلقًا دائمًا، يبدو لى مهجورًا. إنه شاب محمل بالقصص المريكة. نموذج فنى رغم أن الثلاثة الآخرين قد اختلفوا معه. ليس مهما أن أعرف من المخطئ ومن المصيب. المهم أنه اختفى ولم يعد له أثر. كنت أريد أن أستمع إلى قصصه التى يحملها. قصص النجاح والفشل. منه هو وليس من أحد آخر. لكنه تبدد بعد أول لقاء. لم يتركنى الثلاثة الآخرون، محمد سعيد ومحمد عبد الفتاح وأحمد حسن. مهم

أن أكتب أسماءهم. كل منهم قصة نجاح وتعب. كل منهم حالة فنية. يشتركون فى شىء واحد، مصرى، جميل، هو الشهامة المصرية، وكل منهم بعد ذلك ينفرد بقصته، ليس مهمًا أن أروى قصصهم هنا، لكن محمد عبد الفتاح حالة أكبر من زمنها، إنه يجرى على المصريين كطفل تاه سنينًا عن والديه فى الغابات ثم فجأة رآهم عند نهاية الغابة، إن الفرح يسبق كلامه وهو يقابل أى شخص مصرى. لقد ترك مدينته، مدينة الطور، صغيرًا جدًا واشتغل على السفن وطاف العالم عاملاً على يخت أمريكى، وفى كل هذه السنين لم يفقد طفولته. شىء مدهش هذا الرجل سريع الكلام، يفرش لك عواطفه أمامك فى الطرقات.

المدهش أنه كان الأكثر قربًا منى لكنى دائمًا أنسى ملامحه، إنه لن يغضب منى حين أقول ذلك، سيفهم المعنى، إنه وجه بحّار يطل عليك مع الريح، يترك لك قصة ويذهب يبحث عن قصص أخرى، يعود محملاً بالأساطير، وجه لا تنساه ولا تمسك به. يظل يدور حولك ومعك وتبتسم وأنت لا تعرف هل هو قريب منك أم بعيد عنك. إنه يبحث عن مصر والمصريين، لكن سرعان ما تحمله الريح مثل كل البحّارة. محمد سعيد صاحب مقهى الأهرام فى لاروشيل، هادئ، ناجح فى عمله وعنده دائمًا مشاريع مؤجلة للعود ة إلى مصر، شخصية فنية أخرى. قصة

قصيرة مركزة لكن محمدعبد الفتاح رواية تنتهى منها لتجد نفسك فى بدايتها. عادت إلىّ مصر مع المصريين، ومع الشاب أحمد حسن الذى يعمل كل الوقت. ليس لديه وقت إلا للعمل، لقد جاء ليكافح وهو يكافح حتى ولو كان مرتاحًا..

عادت إلى مصر مع النوستالجيا التى تزداد كل يوم، التى تمسكنى الآن وتتسع فى روحى وصوت فيروز يكاد يدمعنى، وهى تقول ما فى حدا، عتمة وطريق وطير طاير على الهدا. أخاف الأغانى التى تربيت عليها، لا أريد أن أسمعها الآن، ستجعلنى لا أرى الحدائق ولا الضوء وأنا مضطر للبقاء. لقد أتت الأحزان المصرية معى، قفزت إلىَّ مع اقتراب عودتى ماتت أمى وأنا هنا بعيد وجاءنى ابنى الأكبر مصابًا إصابة قديمة كبرت مع الوقت دون أن يخبرنى، ويحتاج إلى إجراء جراحة عاجلة فى كتفه. إن مصر تجرى ورائى وأنا أريد العودة إليها.

ماتت أمى.. عرفت نبأ موتها فى الصباح الباكر. أخاف دائمًا دقات التليفون فى الصباح الباكر. لم يكن ممكنًا الرجوع بسبب حضور ابنى الذى تحدد له وقت إجراء العملية الجراحية.. أى سجن صرت فيه فجأة..

خرجت إلى الحدائق الممتدة أمامى فى حى الميرى، وعدت ثم خرجت إلى وسط المدينة. كل شىء سيتلون الآن بالحزن، أنا أعرف، خاصة والريح هادئة، والسماء رمادية وطيور البحر لم تعد بيضاء. لا بد أن أغلق باب الحزن. وبسرعة. ثم ما ذنب القارئ.

ذهبت إلى بار الجاينيت فوجدته مغلقًا، ذهبت إلى المرأة التى كنت على موعد معها فلم تأت. أجل. هذه حقيقة، ذهبت إلى البنك أسأل عن نقود انتظرها فوجدتها لم تصل. توقفت فى الطرقات أفكر فى ألبير كامى، فى مورسو، الذى افتتحت الرواية بموت أمه.. ألبير كامى يكتبنى الآن.. ذهبت إلى معرض موسى ساخو لأشرب معه الشاى السنغالى فلم أجد موسى، ووجدت زوارًا لا أعرفهم، اتصلت باثنين من المصريين فوجدت الأنسر ماشين يرد علىَّ، إنهما فى العمل، وأنا لا أحب الأنسر ماشين، ذهبت إلى أكثر من مكان وفى كل مرة كنت أتوقع أن ألبير كامى يكتبنى. بعد نصف قرن من كتابته للغريب. مر النهار خائبًا لكنى أبدًا لم أشعر بالضيق، فى المساء أطل علىَّ جبار ياسين بوجهه الطيب، ونويل فافرييه بدهشته الطفولية. كانت الدموع قد سبقتهم إلى وجهى منذ لحظات وكنت قد جففت دمعى، كنت خائفاً أ لا أبكى. لم أبك كثيرآ، لحظات هادئة تسللت فيها الدموع وجففتها، كان جبار قد فقد أمه منذ شهور، لم يرها منذ ربع قرن. ماتت فى العراق الأسير وهو فى المنفى، كنت قد رأيت أمى قبل سفرى وابتسمت وقلت له الموت ليس مشكلة لكنها الطريقة التى يتم بها هى التى تؤلمنا .،كان وضع جبار أكبر عزاء لى وأكبر عزاء لأى أحد. ذهبنا إلى بار الجاينيت، رحنا نتكلم فى كل شىء وفجأة مد لى نويل الجميل يده يصافحنى يعزينى فى وفاة أمى. كان

واضحًا أنه لم يعرف ماذا يفعل فى هذا الموقف وظل كذلك لوقت طويل حتى وجد الحل، الطريقة السهلة جدًا، أن يشد الصديق على يد صديقه..

انضم إلينا بعد قليل شخص ثالث يحمل اسم باتريس.. رجل ضخم سمين قال لى جبار إنه كان أضخم من ذلك من قبل. وأنا أشعر دائمًا بالأمان مع الناس السمان. أشعر دائمًا أنهم أبرياء. أكثر براءة من غيرهم. إنه مثقف متعاطف مع الفلسطينيين وقضيتهم وصاحب مصنع يخوت. تعارفنا بسرعة مدهشة، وانتقلنا إلى بيته لحظات ثم إلى مطعم صغير. فى المطعم انطلقت النكت المصرية منى. قلت نكتًا تلك الليلة شديدة النفاذ لاذعة جدًا مصرية إلى أقصى درجة وضحكنا كثيرًا جدًا، وفى منتصف الليل تركونى بعد أن أوصلونى إلى الشقة. فى الشقة أشعلت التليفزيون ورأيت الغارات على أفغانستان.. تنهدت وقلت هاهى أمريكا قد بدأت عملها العبثى، ستشوه المشوهين وتقتل المقتولين بسبب فعلة هى التى صنعتها، ووجدت نفسى أتساءل لماذ حقًا لا تموت أم أمريكا؟ لماذا تموت أم فرنسا وتموت أم مصر.. وسرعان ما أدركت أن أمريكا، الدولة الجبارة التى تهيمن على العالم، ليست لها أم، لم يكن لها أم فى يوم من الأيام. لم تتعلم الرقة، لم تعرف كيف تأخذ الناس فى صدرها..

أغلقت التليفزيون ونمت..

* * *

فى لاروشيل، كما فى غيرها من المدن الفرنسية تحمل كثير من المقاهى أسماء أدبية، لكن لأن لاروشيل صغيرة، ولأنى امضيت بها وقتًا طويلاً وقفت كثيرًا عند أسماء مقاهى ومطاعم مثل (أوندين) و(جارجانتوا) و(الزورق السكران Le Bateau Ivre) وغيرها.. وتوقفت مرة عند اسم مقهى مدهش هو (على الرصيف (Sur La Quie) وفكرت أن أكتب فيه كل يوم فى الصباح، فهو باسمه ليس بعيدًا عنى وعن حياتى التى أحبها بين حرافيش الكتاب المصريين عل المقاهى الهامشية فى القاهرة إلا أننى فضلت الكتابة فى مقهى المارين بسبب اسمه ولأنه يقع على الميناء القديم ولأنه بموقعه واسمه يذكرنى بالأنفوشى بالإسكندرية.. لكنى لا أنسى ليلة دخلت فيها أحد البارات قرب ميناء (المينيم) بار صغير لم أهتم أن أعرف اسمه جذبنى إليه أنه خال من الناس. ليس فيه صخب الجاينيت ولا شباب الجاينيت المرح. لماذا كنت أبحث عن مكان خال تلك الليلة؟ لا أعرف. لماذ تخليت عن استمتاعى بصخب الشباب والفتيات فى الجاينيت؟ لا أعرف. ربما لأ ن الجاينيت كان مغلقًا تلك الليلة. مؤكد أن ذلك هو السبب المباشر، كثيرًا ما كنت أجد الجاينيت مغلقًا؟ لا أعرف مواعيده. فى الحقيقة أمضيت الأشهر الثلاثة بلا روشيل بلا خطة. لم أخطط لأى يوم. فى ذلك البار الصغير كانت تجلس امرأة نحيلة تجاوزت الأربعين. كانت تجلس إلى البار مباشرة. وهناك فى الركن كان يجلس رجل

متوسط العمر أيضًا وخلف البار كان يعمل شاب صغير وفتاة صغيرة فى حيوية شديدة. أجل حيوية رغم عدم وجود رواد. جلست إلى جانب المرأة. كان واضحًا أننا لن نتكلم. كانت مستغرقة جدًا فى شرب النبيذ. بلا مقدمات أقبل علينا الرجل الآخر وجلس بيننا وقال نكتة بالإنجليزية. كان واضحًا أنه سكران جدًا فكانت لغته نائمة، ولأن المرأة لا تتحدث الإنجليزية ولا عاملى البار لم يضحك أحد، ولأنى وجدتها نكتة بايخة، لم أضحك لكنى ابتسمت ابتسامة مجاملة. سألتنى المرأة بالفرنسية عما قاله الرجل فقلت نكتة فهزت رأسها. ثم ابتسم الرجل وبدأ يقول نكتة أخرى فقال: كان هناك ثلاثة أشخاص أحدهم يعرف ثلاث لغات هو الألمانى والآخر يعرف لغتين هو الفرنسى والثالث يعرف لغة واحدة هى الإنجليزية هو الإنجليزى، ولا أعرف ماذا يضحك فى نكتة كهذه، لكن الحقيقة إن الرجل كان يحمل وجهًا بريئًا جدًا، وكان يحتاج أن يتكلم إلى أحد وطلبت منى المرأة أن اترجم لها أنا الذى لا أعرف الفرنسية جيدًا نكتة الرجل الذى عرفت أنه بحَّار إنجليزى، ولم يكن هناك فرصة للاعتذار عن الترجمة. الرجل محتاج للكلام والمرأة محتاجة للسمع ونظر لى الإنجليزى نظرة رجاء أن أقوم فعلاً بالترجمة فوافقت.. راح الإنجليزى يقول النكت الباردة بطريقة بطيئة لسكره البين ورحت أنا أترجمها بلغة فرنسية ركيكة فبدأت المرأة تفتح عينيها بانتباه يزداد شيئًا فشيئًا، ثم بدأت تبتسم ثم

بدأت تضحك وبدأ الإنجليزى يشعر بالرضا فبدأ يبتسم، ثم بدأ يضحك، ثم بدأت أنا فى الدهشة فرحت أترجم وابتسم ثم أضحك، ثم رحنا نحن الثلاثة نضحك على كل نكتة وأبتسم عاملا البار ثم راحا يضحكان معنا، وقضينا أكثر من ساعة على هذا الوضع العجيب، لا أحد يفهم شيئًا مما يحدث أو يقال لكننا جميعًا نضحك بصخب رائع ومتعة حقيقية.. ثم خرجنا، منتصف الليل نجرى تحت المطر الذى فاجأنا والريح التى هبت علينا من فوق الأطلنطى وكان كل منا يسمع الآخر يجرى ضاحكًا من بعيد.

المحتويات


الهيئة المصرية العامة للكتاب